رأفت سليم

الطريق والعاصفة



رواية



الطريق والعاصفة

روايـــة

رأفت ســليم

لوحة الغلاف : **سميرة عبد الوهاب**

الطبعة العربية الأولى : مارس ١٩٩٩

رقم الإيداع : ١٨٤٥/ ٩٩

الترقيم الدولي I.S.B.N. 977-291-128-0



السلسلة الأدبية

رئيس المركز

على عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد

المشرف العام

على السلسلة الأدبية

خيرى عبد الجواد

الجمع والصف الإلكترونى

مركز الحضارة العربية

تنفيذ : صفاء الشريف

٤ ش العلمين عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات

تليفاكس : ٣٤٤٨٣٦٨

رأفت سليم

الطريق والعاصفة

رواية



إهداء

إلى ابنتـــيَّ :

فاتــن وحنــان

رأفت سليم

الفصل الأول

قـراءة بأوراق قـديمـة :

سـحـر :

يا حلمـاً لـم يبدده مطلع أى نهـار ذهبى ، ولا يقظة واعـية لكل الأشـياء الصغيـرة الدائرة فى أفلاكها حـولى لا تمل ، ولا الأرق . وإن أصبحت الآن معذباً مـفتوح العينين ، فى كل لحظة : أرثيك .. أحببـتك دوماً .. كانت لك عـواطفك المتأجـجة كـمحـيط هادر لا يهـدأ ، اندفعت إليـه .. ولأنه يجيـد اللعب بالكلمات الحلوة ، بينما يخنقنـى الخجل عن البوح .. شدك الضـوء اللاهب كفراشة احتـرقت .. وأنا واقـف جامد ، بكل ميـراث الخجـل ، لا أملك سوى شفتين باردتين تُتـمتمان بذكرى حب ضائع ، برثاء مـتصل غير مجـد ، هو زادى فى عمـر النوم الـطويـل الذى أحيـاه مـفتوح العـينين منذ رحيلك ! ..

حاولـت كثـيراً أن أبكيك ، لكن الدمـوع - فى كل مرة - كـانت ذوب شمع جامد بارد ، يسيل أحياناً لحرارة الذكرى ، تتساقط قطراته فى داخلى ، يغص بها حلقى ، وهناك تتجمد من جديد ! ..

سحر :

يا حلمي الوحيد المبدد فوق السطور المتراكمة على الورق الأبيض لأبحاثي ، من أجلك .. أنكب عليها ، ترنو إليّ – من خلال الصفحات بلا ملل – ملامحك الجميلة الثائرة ، تلتمع على وجنتيك – كتفاحتين حمراوتين – دوماً حرارة القلب ! .. يا حلمي المشتعل الذي لم أستدفيء به يوماً ، ولم أفلح به في إذابة ميراثي البائس المتبلور في شفتين من ثلج ! .. فأي حياة الآن أحيا ؟؟..

***

قالت أمه بحزن :

– لماذا كل هذا العذاب ؟! .. ابتهلت كثيراً إلى الله أن تنسى .. لكن ..

همس بأسى :

– أعلم بأن ذلك مستحيل ! ..

قالت أمه بقلق :

– وماذا تريد أن تفعل بنفسك ؟! ..

– لست أدري ! ..

الذكرى عذاب ، التذكر عذاب ..

- ١ -

حكاية معاصرة :

المعطف الأبيض يضيق به ، يخنقه .. تلونه بقع صفراء وخضراء باهتة . الجو - فى حجرة المعمل - خانق . الحر يهبط قاسياً مع الظهيرة . شعر بالملل ، لكنه أوشك على نهاية الرحلة ...

- ستجعلنى ملامحك رجلاً مشهوراً ، يا حلمى المشتعل .. سوف أغير وجه العالم .. علمنى احتراقك أن أحلم ، أيضاً ، مفتوح العينين . الأقراص البيضاء الصغيرة بلسم لكل عذابات الشبق ، الجوع ، الانسحاق تحت وطأة الرغبة فى معايشة إنسانٍ ما ، والانصهار فيه ، والفناء معه ! .. لعنة حلت بالجسد ، بالروح ! ..

((لى صديق يكتب كل يوم قصيدة شعر باكية فى محبوبة هجرته ، أحرقت قلبه بصهد اللوعة ! .. أرثى له ، يتمرد قلبى داخل سجن الضلوع من أجله ، أكاد أن أبكى ، لكن : لا يلبث أن يخف جيشان مشاعرى ، أهدأ ، أبرد كجمود ثلجى ، إلى حين ..))

يُثبّت نظارته السميكة البيضاء على عينيه ، يحملق بهما طوال الليل فى الجحافل المحتشدة لنمل الكلمات ، والعلامات والنقط ، والحروف المبهمة ، المنغلقة على ما فى باطنها من حقائق غريبة ، فى داخلها تحبل علاقات غامضة لمساحيق بيضاء تذوب ، ولا تذوب ..

جلس على المقعد القصير الأبيض ، أخذ ينظر إلى أنابيب الاختبار ، والقوارير والسوائل ، والمساحيق المعلقة على السطح ، ابتسم بشحوب ، نهض ليفتح النافذة ... حول المبنى خلف السور العالى ، أزهار غضة تتفتح

: حمراء وصفراء وبيضاء ، تبدو : فى بداياتها بقعاً صغيرة ملونة ، تلمع كضوء الشمس من خلال ثقوب الأوراق لشجرة ضخمة قصيرة دائمة الخضرة . تنفس بعمق . لا نسمة هواء . الحر تتزايد حدته . أغلق النافذة ، أدار جهاز التكييف المثبت بالحائط ، قبل نهاية السقف الواطىء ، فى ركن الحجرة . لحظة أن ضغط على زر التشغيل ، أز الجهاز أزيزاً عالياً ثم سكت. امتلأ بالضيق ، سار بطيئاً مترنحاً ، استند إلى طاولة القوارير ، تهالك جالساً بإعياء ، أسند رأسه على يده .. سيال الأحلام ينثال بهدوء .. امتلأ بضجر رغم ذلك ، رفع يده ، حاول أن يضرب الطاولة المستطيلة بقوة ، سوف تهتز القوارير ، قد تسقط أيضاً على الأرض ، تتحطم بدوى .. خلع المعطف الأبيض عنه ، ببقعه الملونة الباهتة ، علقه على مشجب الحائط ، اندفع هارباً من الغرفة ...

على درجات المبنى الرخامية ، وقف حينا .. ممرات صغيرة مرصوفة بأحجار بيضاء ، تقسم الخضرة والأزهار والأشجار إلى حدائق منفصلة بهيجة . أحس بارتياح غامض . ملله المهاجم يتراجع ، تذوب فلوله .. الحر تنكسر حدته ، وقد بدأت الشمس تميل للغروب ويتحرك النسيم ، وهو وحده الا من ساع عجوز ينتظر انتهائه من عمله ، لينصرف . كلهم ذهبوا منذ ساعات ، إلا هو .. ينسى نفسه ، يستغرق ليل نهار .. لجلده ينظرون إليه بإعجاب ، بحسد ، بإشفاق أحياناً ، أحلامه جنونية ، قالوا له .. لكنه يبتسم بهدوء على عادته ، يعجبون .. هو وشأنه أيضاً عندما يهمل ذقنه ، تنبت بشكل لافت ، يهمل ملابسه ، لا يستبدل قميصه المتسخ ، تقول له أمه بحنانها الزائد .. أفق يا ولدى لنفسك ! .. ليس بحثك هو كل

الحياة .. لا تجر - أيضاً - في سباق مع الزمن ، ينتصر الزمن دائماً . لازلت أراك ، وأنا أهدهدك صغيراً بين ذراعي وتبكي ، لا تكف . كنت عنيداً مثابراً حتى في البكاء ! ..

وقع أقدام يتردد خلفه على بلاط الردهة العارى ، يلتفت إلى الساعى العجوز القادم ، في عينيه استعطاف ، يريد الانصراف ، يبتسم «هو» بهدوء .. يقول الرجل العجوز :

- هل ستستمر يا دكتور ؟! ..

يأخذ نفساً عميقاً ، يزفره ببطء ، يقول :

- لا أدرى ! ..

- نحن في آخر الأسبوع يا دكتور ، لماذا لا .. ؟

يقول بلا ضيق :

- لا بأس . أغلق الأبواب ، لننصرف الآن ! ..

لا يلبثا أن يهبطا الدرج معاً بطيئين ، وعند الباب الخارجى يفترقان : كل في طريق ..

- ٢ -

سحر :

تقترب رحلة العناء من نهايتها . سبعة أعوام طويلة منذ رحيلك منكباً على الأوراق ، على المخابير والمساحيق والسوائل الملونة .. فئران التجارب بدأت تتنافر : لا غزل ، لا جنس .. تنكمش الأنثى في ركن محبسها ، الذكر - على الجانب الآخر - يبدو قوياً ، لا يبالى ، لا ينظر إليها (لكنه ليس سعيداً ! .. لماذا ؟!) ، عيناه جامدتان ، خرزتان لامعتان لا أكثر ، بقى

أن أتناولها أنا ، الأقراص ؟! .. سوف لا أتردد ، لأن ذكراك دائماً تعذبنى، تثير اشتياقى ، الذى بلا حدود ، إليك .. لا يستطيع عقلى الذى يبحث ويكد بلا ملل ، أن يصدق أنك احترقت كفراشة .. تبرز ملامح (قاتلك) المختال كطاووس ، تضحك بقسوة خلال الخاطر المشغول ، ساخرة مما أحاول ، تقول لى أيضاً : كانت زهرة جميلة فقطفتها ، ولما استنشقت كل ما بها من عطر ، اعتصرتها ، وألقيت بها تحت قدمى : مجرد نفاية بلا قيمة ! .. تطعن الكلمات خاطرى ، تصمنى بالعجز ، عن مواجهته فوق أرض واقع صلب ، يعترك عليه الناس ويتصارعون من أجل أنفسهم ، ولا شىء آخر خارج جلودهم يهتمون له وينشغلون ! .. ثم ماذا أيضاً ؟! .. أحس الآن بآثار الجهد المضنى المبذول طوال النهار والليل : مثل رمال صحراوية تترسب فى الرأس والجسد والأطراف ! ..

يتمدد فى الفراش مغمض العينين . الظلام تتماوج خيالاته أمامه . ثمة ضوء ضعيف يتسلل من خلال خصاص النافذة المغلق . أمه - فى الغرفة الأخرى - نامت منذ أول المساء . كابدت إلى حين عذابات أرق ليلة ماضية ، تهاجمها أمراضها دائماً ، وهو مشغول عنها ، تمتلىء إشفاقاً عليه ، وحنوا .. لا تقول له شيئاً ، حتى لا تضايقه كلماتها ، تتساءل كثيراً بقلق : أى أفكار تنتاب هذا الولد الذى رحل أبوه مبكراً ليسلمها إلى الوحدة فى خريف العمر ؟! .. تضنيها آلامها فى ساعات الليل الأولى ، لا يلبث الجسد المنهك أن يستسلم لنوم مضطرب ، ترى خلاله أحياناً البنت الصغيرة ، ابنة جارتها .. «سحر» ، زهرة برية بيضاء معلقة فى شعر ليلى ينسدل حتى العجز ، تضيؤه كشهاب متألق .. شبت الصبية مع

«حسام» ، كانا يلعبان معاً ، ومع السنوات الطويلة : الزهرة تتفتح أكمامها ، الولد يخط شاربه آثاره فوق الشفة ، يتيه بقوامه النحيل الفارع ، لكن : ماذا لو يسمن قليلاً ؟! .. قالتها له البنت يوماً ، صارت أمنية أن يحقق لها ما تريد ، صار شرهاً ، يأكل ويأكل ، خافت أمه عليه ، قالت له : ماذا دهاك ؟! .. قالت لها : لا تقولى له مثل هذه الأشياء أيتها الشيطانة الصغيرة ، يصدق كل ما تقولين ، يحبك ! .. فاياكِ أن تتزوجى غيره إذن !! .. تهتف البنت بسذاجة محببة : «قد يفعلها هو يا «تانت» ، أما أنا ؟! ..» تضحك الأم من أعماق القلب ، تجرى البنت نزقة خجلة من أمامها ! ..

***

التلال الصغيرة : مزدوجة بيضاء ، مشرعة فى مشداتها ، تحتضنها البلوزات الملونة : تتكاثر فى البيوت ، فى الشوارع ، تيارها يتدفق بلا نهاية ... فرسان الزمان الصاعدون إلى التلال مسحوقون بهموم النهار ، ألقوا عنهم دروعهم ، كسروا سيوفهم ، تراجعوا فلولا بلا عدد .. فرسان آخرون ، جاءوا من بلاد غريبة مقرورة ، يطلبون الدفء ، يدفعون ثمن الشمس بسخاء من عطاء الأرض ، يتدفقون من خلال أبواب مفتوحة بلا حراس ! ..

الزمن القديم كان يحفل بالبطولة ، الصبية اليافعون يقفون عند نواصى الشوارع : مهندمون ، لامعو الشعور ، يحرسون الفتيات .. مشاعر الحب الغضة تنمو فى الربيع ، وقد رحلت أيام الشتاء الباردة ، وانغلقت ميازيب السماء التى لم تكل : تلقى بما فى باطنها من مياه ، فتبتل الطرقات ، تولد

بحيرات الماء العكر ، يتطاير تحت عجلات السيارات المارة : بطيئة حذرة ، خشية انزلاق فوق الطين المنداح متجمعاً أسفل الأرصفة ! ..

مع توالى المواسم تكبر اليفاعة ، رجولة خشنة الصوت قوية .. تتفتح أكمام الأزهار أيضاً ، ينبت الورد في خدود الفتيات ، يشتعل لونه وهن يكتبن خطابات صغيرة مختلسة يبعثنها إلى الفرسان ، بخطوط دقيقة منمقة : تحكى الكلمات عواطف لم تعرف الزيف بعد .. قلوب ساذجة ، مرسومة وسط عقد الكلمات ، وفى الزوايا ، فى داخلها سهام نزقة ، مخطوط تحتها كلمات : أحبك . أعبدك ! ..

قراءة بأوراق قديمة :

- ((كنت أخجل منك دائماً يا سحر ، وكلما رأيتك تنظرين بجرأة فى عينىّ ، وتهمين - بلا سبب - بضحك غريب لا يتوقف : يحمر وجهى ، ألوذ بالفرار من أمامك ، تجلجل ضحكتك منى .. ويوماً فيوماً : بدأت أنكمش فى حضرتك ، أهرب من لقائك كلما جئت إلى بيتنا .. رغم ذلك كنت أحبك ، ويملؤنى الغضب ، كلما تذكرت نظرات الرفاق إليك وأنت تمرين عند ناصية الشارع ، تسرح عيونهم خلفك ، يتابعونك بوله حتى تختفين .. وددت دائماً لو أمسكت بتلابيبهم ، تشاجرت معهم ، انتصرت عليهم ، رغم جسدى النحيل وخجلى .. لكنى كنت ألوذ برغمى بالصمت ، وهم حولى : يتنهدون ، لا سيما ذلك الولد ((أمين)) ، أكره شعره الأحمر ، ووجهه الأبيض الذى تتناثر عليه بقع النمش الباهتة .. ولد جسور ، مفتون بنفسه ، ربعة قوياً ، يلتف حوله الآخرون ، يحبونه ، يثير غيرتى .. يتكلم عنك كثيراً ، يفور دمى .. أقول لك - كلما التقيت بك فى

بيـــتنا – : لا شـــأن لك به ، لا تكلمـــيه ، ســـأقـــول لأبيك ، لأمك !! .. فـتضـحكين على عـادتك بلا مـبـالاة ، بانطلاق لا يعـرف حدوداً ، فـازداد انكماشـاً وخوفاً عليك ، خـوف من تأجج خطر يستعـر فى قلبك المتعطش للحياة (كنت أحسه – حينذاك – على نحـو غامض ، ولا أفهمه) .. عرفت يوماً أن هذا الولد – الذى أكـرهه – كتب خطاباً أعطاه لك – : كنت تمرين بالطريق ، وكان الطريق خالياً – وتوارى (أمتلىء الآن – لذلك – بالحزن ، كل الحـزن) .. وقفت عند ناصـية تقـرئين الورقـة الصغـيـرة ، تدسينهـا فى جيبـك وقد تألـق وجهك فـرحاً .. قالهـا لى صـبى آخر كان مـعه ، يتبـعه كظله .. تهـامس الآخرون أيضـاً أمامى أنكمـا التقـيتمـا فى اليوم التـالى .. كدت أن أنفجـر غضباً عـاصفاً وغيظاً ، لا أقول بكاء ، كـنـت أحس بقهر ، بمذلة تسـحقنى ، وعندمـا رأيتك فى بيـتنا ، انسـحبت إلى حـجرتى حـزيناً وبكيت ! ..))

– ٣ –

سحـر :

يا حلمـاً بدده مطلع نهار مـتعجل لأتعـذب أنا ، تكوينى لوعـة وعذاب التذكر معاً ! ..

ساعات الليل تتـقدم . طوابير نمل الكلمات ، الرموز : تحتشد ، جيوش جرّارة ، من أجل حـبة صغـيرة بيضـاء ، تتجمـع ذراتها من فيـض جـيوش النمل . الرموز تحفل دائـماً بحـرارة لا تفتر ، رغم برودة الصفـحات ، وقد مر الـصيف . بواكـير البـرد بدأت تهبط وئيـدة كلما غـابت الشمـس وساد الظلام .. يكون ((حسـام)) قد عاد من معـمله منهكاً ، يأكل لقمة سـريعة ،

ينـام قليلاً ، يظل ملقى على الفراش مفـتوح العينين ، ينساب نمل الكلمات من رأسـه على الوسادة ، على جـسده ، على مـلابسه ، فـينهض وقد تـبدد إعياء النهار ، يشعل مصباح الغـرفة ، كوب من الشاى الساخن إلى جانبه ، صنعته أمه ، سيجارة مشتعلة ، و ....

قالت أمه قبل أن تنصرف لتنام :

- ألا تريد شيئاً آخر ؟! ..

قال : لا . ظلت جالسة أمامه ، لائذة بصمت طويل ، تاركته يعمل .

عادت تقول :

- ألـم تجع بعد ؟! ..

- لا .

- ستنسى نفسك كالعادة !

- لن أنسى .

- ألـم يوشك البحث على أن ينتهى بعد ؟! ..

- لكل شيء نهاية !

قالت بحزن مبهم :

- إنك عنيد يا ولدى ! ..

ابتـسم بشحـوب ، قـال بهدوء : النوم خـير لك يـا أمى من مناقشـة بلا جدوى ! .. تصبحين على خير ..

قالت باستسلام : طيب . تنهدت ، نهضت وهى تقول :

- يجـب أن تـثـقـل مـلابسـك أيضـاً .. تذكـر أن الشـتاء قـد حـل .. ألا تشعر بالبرد ؟! ..

- أشعر يا أمى . نـامى أنتِ ، وتدثرى جيداً ، وتذكرى مثـلى أن الشتاء قد حل ! ..

ضحك بفـتور . ضحكت بإعـياء ، همست : غـلبتنى (تلوذ بفراشـها ، تستسلم كعادتها لآلامها ، لا تشكو) .. نامت .

ساعات الليل تمضى هادئة ..

***

عندما انتصف الليل أرقت أمه ، قالت :

- ألا تنام ؟! ..

- ليس الآن !

- ألم يعد من حقك بعد أن ترتاح ؟! ..

- يقترب البحث من نهايته يا أمى !

- تقول ذلك دائماً ..

- ليس ذنبى !

- النهار يوشك أن يطلع ..

- نامى أنتِ ، لا تقلقى .. لماذا صحوت الآن ؟! ..

- رأيت حلماً !

- أبى ؟! ..

- لا . سحـر .

حـاول أن يبتـسـم ، لم يسـتطع . لاذ بصـمت واجم . أخـذ ينظر فى الأوراق البيضاء أمامه ، فى نمل الكلمات والرموز المحتشدة .. أمه تنظر إليه

وعلى شفتيـها ابتسامة حنونة معـابثة ، شعور مبهم بالحـزن يتمدد بصدره .. قـال بلا تفكير :

- ماذا قالت لك ؟! ..

- تحبك !

قال بسخرية حزينة :

- لازالت ؟! ..

- نعم !

- ولماذا إذن .. ؟

هتفت أمه : يرحمها الله ! ..

قال بتوتر : كان نذلاً ..

- أنت تعرفه منذ كنت صغيراً ! .. يقولون : غرر بها عندما أعطته قلبها الطاهر ! ..

الحزن ينداح بصـدره أكثر ، يضنيـه ، بدأ يشعر باهتـياج ، لكنه تماسك ، قال بجمود :

- كانت نزقة طائشة .. أيضاً .

- حرام عليك . إنك تحبها ، فلا تظلم ذكراها ..

ران صمت راكد حيناً ، قالت بحزن :

- لم أقصد أن أضايقك . الأحلام مجرد نتاجات تعب النهار والمرض ، عندما أنام نوماً قلقاً .. قم الآن فاسترح ..

أغمض عينيه ، بقى جامداً ، جذبته من ذراعه ، لم يقاومها .. عندما لاذ بفراشه ، أطفأت النور وانسابت هادئة إلى الخارج ...

حكايات قديمة :

شارع بوباستس ينحدر بطيئاً إلى الكورنيش ، إلى البحر ، قديم : كل شبر فيه يحفل بذكريات صغيرة .. فى المنتصف يقع بيت ((أمين)) .. (أصبح الولد شاباً يتجاوز العشرين ، يتعثر فى دراسته ، يتحلق حوله أصدقاؤه عند الشاطئ كل صباح وأصيل ، ينزلون إلى البحر ..)

الصيف زائط ، المدينة غاصة بالغرباء .. سحر تذهب إلى البحر مع أمها وشقيقها الصغير .. ينسل «أمين» من الآخرين ، يلتقيان .. تضحك البنت فى وجهه بسعادة ، ينعكس داخلها المضيء على ملامح الوجه الدقيق التقاطيع ، المحمر بلون الشباب الطافح ، تمنح الحياة حولها فرحاً باذخاً ! ..

حسام يتتبعهما عن بعد ! ..

يقول الآخرون : ((جاء الذئب الشرس لابساً ثياب الحملان ، يتمسح ، يهش للوجه الشاب المتأجج الأعماق .. يهمس بصوت مغلف بشبق وأنانية عظيمين : أحبك ! ..))

يقول أمين : ((هل وصلتك رسالتى ؟ .. كلماتى ؟! .. أحبك من أعماق القلب ! ..)) لكنها تضحك بوجوم غامض ، تقول له : ((أعرف صدق عواطفك . منذ زمن قديم وأنت تحبنى . لا أنكر ميلى إليك ، أنت تعرف ، وكلما التقينا لا تكف عن السؤال بإلحاح : هل أحبك ؟! .. أتغار

أيضاً من حسام المتردد الخجول ؟! .. هو كشقيقى لا أكثر .. غداً قد يكون فى القلب مكانك ! .. أحب نمش وجهك الباهت المتناثر كبقع ظل))
فيضحك ! ..

يقول الآخرون : ((تعجبها جداً جسارته .. طالما حلمت به بعد كل رسالة ، وهى نائمة على ظهرها فى فراشها ، فى ليال كثيرة ، وقد هدأ البيت كله والشارع ، ولم يعد يسمع سوى هدير البحر القريب تحمله نسمات الصيف الحار ، الحافل بلزوجة الرطوبة المخزة للجلد والأعصاب .. تحلم به وهو يتسلل إليها من النافذة (يسكنون الطابق الرابع – لا يخاف أن يسقط ويدق عنقه !) ، يأخذها على حصان أبيض ويطيران معاً فى الريح ! ..

تقول لأحلامها : ((سوف يتزوجنى ، يضعنى فى بيت فى الجنة ، تغرد البلابل فى حدائقه ، تصدح بلا ملل كلما شقشق نور النهار.. أحس معه بنعمة الحياة.. أجرى ، أضحك ، أختبىء منه خلف الأشجار ، يمسكنى، أجرى ، نظل – دائماً – أطفالاً ! ..))

تقول لأمين :

– لا تُقطب جبينك قلقاً وأنت تجلس قبالتى ، لا أجدنى أتمالك نفسى الآن ضاحكة من مخاوفك .. كل الرجال هكذا ، مثلك ، لابد ! .. لكن أَمَا كان أجدر بى – أنا أيضاً – أن أبثك مخاوفى منك ؟! ..

يحدق فى وجهها ببلاهة ، فتتحرك رغبتها المستمرة فى الضحك المنطلق رغم أعوامها العشرين ..

- هـم يصورونك دائمـاً وحشاً أنانياً ، يحكـون عن مطـارداتـك التى لا تنتـهى لبنات شـارع بوباستس ، وتانيس ، وطـيبـة ، وكل الاسكندرية . يحكون عن اسـتـهـتارك بـكل شىء ، عن شكوى أبيك وأمك : لشـذوذك وجـسارتك ، عن تـعثـرك فى دراسـتك .. لو صدقـت كل هذه الأشيـاء : لابتعـدت عنك خائفة مـرتعبة ! .. فـتعال نسـير معـاً على طول الكورنيش متشابكى الأصابع ، ولتتلصص العيون خلفنا أنىّ شاءت ! ..

ينهضان ، يغادران الكازينو ..

المدينة تزدحم بالغـرباء هذا الصيف ، وكل صيف ، يـبحثـون عن نسيم البـحر ومـائه المتـألق تحت الأضـواء فى الليالى ، يـحتـشـد به السابحـون ، يتعـاركون طوال النهار ، يتراشـقون به ، تحملهم الأمـواج إلى ذروة ، تهبط بهم ، لا يلبث أن يغضب البـحر ، فترتفع الرايات السـوداء ، تتردد أصوات صفـارات رجال الإنقاذ وصـيحاتهم ليـخـرج السابحـون ، تهتز البـراميل بعنف عندمـا تلطمـها الأمـواج ، تضرب الأسـوار الحـجرية أيضـاً فى كل الشـواطىء ، فى كلـيـوباترا ، يتطاير الرذاذ علـى السـيـارات والمارة ، على مصـابيح الكورنيش ، وكازينو ((لاكـوارتا)) ، كل شىء تقلبه الـريح أيضاً عندما تهيج ، لا عقل لها ! .. (يهـربان - هو وهى - متشابكى الأصابع) ، يهرب الآخـرون إلى داخل المدينة خوفـاً من غضب الريح التـى تُطير أذيال الملابس ، تكشف عن المخـبـؤ تحـتهـا ، تضـغط الأذرع على طول التنانيـر ، يتطاير الشـعـر فى الهواء عـابثـاً ، هشاً ، كـذكريـات حلوة لصيف قـديم ، تذهب جفاء ! ..

وجه حسام ، فى الزحام ، يترصدهما على عادته .. عندما تلتقى العيون تهرب النظرات من التلاقى ، يضحكان ، ينساب حسام بطيئاً منكمشاً على أفريز الشارع ، يسبقهما يشيع مقدمها هامساً : انظروا ؟ .. هذه البنت المجنونة المتقلبة ، تسير إلى جانب الذئب ذى الشعر الأحمر ، يعطيها أماناً زائفاً ! ..

تقول سحر : يروّج الكثير عنك لأكرهك ، وعنى .. لكنه طيب القلب رغم ذلك ، غيور ، يبدو جاداً دائماً ، ناجحاً فى دراسته ، يقول أنها كل همه ، مات أبوه مبكراً ، رجل أمه - هو الآن - أما أنت ؟؟ ..

تضحك ...

***

ليلة الأمس كتبت لأمين : سوف ألقاك غداً فى الكازينو .. سنخرج إلى البلاچ : أمى وعادل وأنا .. وافنى فى العاشرة ، إياك أن تتأخر ، أضيق كثيراً بالانتظار ، لا أحتمله ، أتفهمنى ؟! ..

دس أمين رسالتها تحت الوسادة ، أطفأ النور ، حاول أن ينام بلا جدوى .. هذه المرة لن تروغ منه ، سيقول لها : كفى لقاء فى ((لاكوارتا)) ، أضيق بالآخرين وهم يرقبوننا : حسام ، عادل ، كل الناس .. الغيرة تأكل قلب حسام ، لا يطيق - كالآخرين - حبنا (يبتسم بشحوب فى الظلام) ، لكنك لا تبالين - أعجب لك - حتى لأبيك وأمك ، وعندما يحاصرنا أخوك برقابته التى لا تمل .. ترفضين دوماً أن تركبى معى سيارتى ، سيارة أبى ، لكنه يتركها لى كثيراً .. نذهب بعيداً على شاطىء أبى قير ، هناك ((شاليه)) صديق لى .. سنكون وحدنا .. لماذا تخافين ؟! .. ومادمت أحبك ، ومهما

يحدث ، فلن نفترق ! .. خوفك منى يدمر أعصابى ، يحرقنى .. وأنت ترفضين فى كل مرة ، تقولين : أحب أن نكون وسط الناس ، فى النور .. حبنا ليس خطيئة .. تعذبنى كلماتك !! ..

يتقلب على شوك الفراش حانقاً متوتراً . نام كل من بالبيت . أبوه لم يعد من الخارج بعد . سيأخذ مفاتيح السيارة من جيبه فى الصباح . يتأخر أبوه فى نومه حتى الظهيرة .. سيخرج بالسيارة مبكراً (لكن كيف تستعصين علىّ ؟ .. كل البنات لا يلبثن أن يلنّ فى يدى ، إلا أنت .. هن جميلات مثلك ، ويلتف حولهن الآخرون ، لكننى أفوز فى النهاية بكل النساء ! .. لست أخاف أن أمسك بيد امرأة لا أعرفها وتروقنى ، فى الطريق .. أطاردها بلا ملل ، حتى المومسات .. لكنك ، كم تبدين لى ساذجة القلب ، سهلة .. لكن ماذا تريدين ؟! .. أفهم ما تريدين ! .. لكنى لم أكسب قرشاً بعد ، لازلت صغيراً .. سينفق أبى علينا ، يفتح لنا بيتاً ؟! .. هذا الرجل زئر نساء ، أعرفه ! .. سوف تروقين له ، وأنا ؟! .. عندما يموت أبى سأرث كل ماله ، وقتها لن أطيق عبوديتك لى ، يصبح حبك - عندى - مثل ذكرى باهتة ، لأن المرأة ، كل امرأة - يقول العارفون - تتحكم بغباء غريزى عندما يولد الأطفال ، لست أحب الأطفال ، سوف يسرقون كل ما لديك ، ولا يبقى لى ، فى النهاية ، إلا نفاية جسدك وعواطفك ، تمنين علىّ بها تارة ، تتمنعين أخرى : متعبة ، مرهقة ، تقولين .. وأنا أدمن قطف الأزهار ، التمتع بها ، إلقائها - أخيراً - كنفاية إلى البحر ! ..

فراش الشوك : هو فراش الشوك . لا يغمض له جفن . عاد أبوه . سمع صوت السيارة وهى تتوقف أمام البيت . ساعة متأخرة . لف نفسه فى

الأغطية . وضع الوسادة فوق رأسه ، لم ينم ... فى الصباح أخذ يفتش جيوب أبيه ، أخذ مفاتيح السيارة ونقوداً كثيرة ، انطلق مبكراً على طول الكورنيش .. كانت الشمس تشرق بطيئة ذهبية ، والبحر هادىء ، سطحه كزيت ثقيل لامع ، تطير فوقه بعض الطيور ، تتعارك حيناً بصخب ، تنقض على السطح ، ترتفع فى الهواء ، تبتعد .. المصطافون خرجوا مبكرين إلى الشاطىء ، الحياة تدب سريعة على الكورنيش .. أخذ يجوب الشوارع على غير هدى ، ضائق الصدر مهتاجاً : (أعرف جنسكن جيداً من الداخل ، يا همى الوحيد فى الليل والنهار .. الشاليه فى أبى قير شهد سقوط الأقنعة عن وجوه كثيرة نضرة لنساء مثلك ، فكيف يستعصى قناعك ؟!) .. ابتعد كثيراً على الشاطىء الطويل ، تنبه ، عاد إدراجه .. ساعته تشير نحو منتصف التاسعة ، استمر فى طريقه .. وجد نفسه يدخل بلا تفكير إلى شوارع جانبية صغيرة ، يخرج .. محطة الرمل ، قلبها ينبض بلا توقف ، الطرق المؤدية إليها ، المتفرعة عنها : تفضى كلها إلى البحر .. صوت الموج الهادىء يخز أعصابه ، لم يكن يسمعه قبلا ، انحرف بالسيارة ، دون أن يدرى ، إلى جوار الرصيف فى شارع جانبى .. صبى صغير يأتى مندفعاً متعجلاً من تجاه الكورنيش داخلاً ، فوجىء به ، حاول تفاديه ، لم يستطع ، مر فوقه ، صرخة واحدة مكتومة أعقبها صمت ، اندفع خارجاً إلى طريق الكورنيش .. ضجة ترتفع وراءه ، نظرة خاطفة إلى المرآة الصغيرة أمامه : يخرجون خلفه ، يصرخون ، يحاولون اللحاق به ، سيارة تبدأ فى مطاردته ، يسرع ، يسرع ، يلف فى الشوارع الجانبية ، يضللهم ، يهدىء السرعة ليدخل شارع بوباستس ، يدلف بالسيارة إلى

جراج المنـزل .. أبوه لا يزال نائماً ، أسقط المفاتيح مـرتعشاً فى جيبه ، ذهب إلى غرفـته ، أغلـق الباب عليه ، ارتمـى على السرير بملابسه عيياً مهتـاجاً ، أخذ يبكى ...

***

فى الكازينو ظلت سحـر جالسة قلقة تنتظر ، الوقت يزحف بطيـئاً نحو العـاشرة ، وهو لا يجيء .. مـاذا جرى ؟! .. بدت عـلى وجهـها ابتـسامـة مـغيظـة وهي تحملق فـى الأفق الأزرق المنبسط إلـى ما لا نهـايةعلى مـرمى البصر ، كـانت الشمس تلقى بضوئها الذهبى على سـطح الماء المتماوج أبداً .. قـالت لنفـسـهـا : أيعـبث بى ؟ .. لا يـهم ، سـوف يجيء من جـديد ، يطاردنى بحبه وقلقه وغروره .. أكـاد أصدق ، فى لحظات الغضب ، كل ما يقال عنه .. لكنه لن ينال منى شيئاً .. صنف آخر من البنات أنا .. هو يعرف ذلك تمامـاً ، ولولا أنى أحـبـه ... أخذت تتـأمل مربـعات مـفرش المنضـدة المتسخ ، شربت زجـاجة الشراب التى أمامـها على عجل ، قامت بعصـبية ، سـارت مـسـرعـة بـين المـوائـد : تتـابعـهـا عـيـون الجـالسـين بفـضـول ، الجـالسات أيضـــاً ، بحـسد بـالغ .. أخذت تنزل الـدرج إلى الشـاطيء ، تصنعت المرح وهى ترتمى نزقة لاهثة تحت الشـمسية . شقيقهـا الصغير نزل إلى البـحر . أمهـا تثرثر مـع سيدة عـجوز ، فى مـثل عمـرها ، تجلس تحت الشمـسية المجـاورة . تنبهت أمهـا إلى مجيـئها ، قـالت لها : أين كنت ؟ .. قالت سحر : كنت أبحث عن صديقة على الكورنيش . قالت أمها : من ؟. قالـت : لا تعرفينها . بدأت تخلـع ثوبهـا البـسيط ليبدو تحتـه مايـوه وردى اللـون ، لملمـت شـعـرها القـصـيـر داخل ((البـونيـه)) المـوجـود فى سلـة

القماش المعلقة فى قاع الشمسية ، جرت رشيقة ، ألقت بنفسها إلى موج البحر الهادىء ، يدغدغ جسدها حنوناً ذاهباً آيباً ، متكسراً عند حافة الشاطىء ...

- ٤ -

قال أحمد :

- هى محاولة لقتل العواطف وغريزة الجنس معاً ؟؟ ..

قال حسام :

- بل محاولة لتغيير قدر الإنسان ! ..

قال أحمد بضيق غامض :

- جنون أن تفكر فى ...

قاطعه حسام بهدوء جليدى :

- كل شىء يبدو جنوناً فى البداية ! .. أليس كذلك ؟! .. لكن : تذكر أن الطبيعة ذاتها تغير نفسها ببطء غير محسوس على مر السنين ..

قال حمدى : فى أى اتجاه ؟! ..

قال مصطفى :

- وأنت فى عجلة من أمرها ؟! ..

- ربما . لكن بحثى من أجل ..

- الشهرة ؟! ..

قال حسام : لا - سعادة باهتة تبدو على الوجه النحيل المنهك ، تلمع فى عينيه ، خلف النظارة البيضاء السميكة .. انتهت رحلة العناء ، سبع سنوات أو تزيد .. القرص الأبيض فى يده ، يتأمله بحنان ، بحب بالغ ! ..

– هذه هى الأقـراص ، تأثيـرها حـاسـم على فـئـران التـجـارب ، على الانسان أيضاً : تبدأ التجربة ! ..

– آه ..

– سوف تعلن الصحف ، كل الصحف ، عن الاكتشاف ! ..

قال حمدى :

– وانت سعيد ؟! ..

– لِمَ لا ؟ ..

قال أحمد بقلق :

– سوف يهرع الناس إلى هذه الأقراص فى لحظة فضول ، فى لحظات يـأس ..

ضحك حسام بقلق أيضاً ، قال :

– إنك تسرح إلى بعيد .. ليس الأمر كما ..

سكت فجأة ، ضاقت عيناه ، تقطب جبينه الشاحب ، قال أحمد بأسى :

– الناس يستـعذبون عـذابهم ، ماشوسـيون فى دواخلهم ، تسـتعـبدهم طبيعتهم أيضاً ، هكذا خلقوا ، كيف تريد أن ...

– تحـرير الإنسـان من عـذاب الجنس ، من العـواطف التى تدفع إنسـاناً للانسحاق ، للذوبان فى آخر ، قد يعبث به ولا يحبه ! ..

سـاد صمت واجم . أخـذ حسـام يدور فى غـرفة المعـمل شارداً . جـاء الأصدقـاء من الاسكندرية ، يبحثـون عنه . صبيـة شارع بوباستس القـدماء صاروا رجالاً . ذابت ملامحهم فى ذاكرته أو كادت .. لكنه لا ينسى الوجه الأبيض ، ببقع النمـش الصغيـرة المتناثـرة ، الآن لا يمتلىء إزاءه بشعور ما ،

يقولون قد مات ! .. أغمض عينيه للحظات ، غاب عن الاسكندرية سنين . فى صخب العاصمة نسى نفسه ، بين جدران هذا المعمل ، بين القوارير ، وتقارير البحث فى الليل ، دائماً لا يمل ، نحل عوده ، امتصه الجهد المتواصل ..

عاد أحمد يقول بانفعاله الغريب :

– سبع سنوات لهثاً وراء ... ؟

قاطعه حسام وهو لا يزال يدور بغرفة المعمل : إهدأ ! ..

قال : أخاف عليك ! ..

قال حسام بهدوئه البارد : كيف ؟! ..

قال حمدى بسخرية باهتة :

– ألا تخشى عذاب ضميرك ، غداً ؟! ..

تساءل مصطفى : لكن من أجل من .. كل هذا ؟! ..

همس أحمد بخبث : من أجل سحر !! .. نظر إلى حسام فازداد الآخر شحوباً ، قلبه يدق بقوة ، قال بسرعة :

– لا . لا . أنت مخطىء . أنتم تعرفون انها كانت .. تلك ذكرى قديمة !! ..

على وجهه نبتت ابتسامة بطيئة باهتة ، هبط على المكان صمت راكد ثقيل .. فما لبثوا أن انصرفوا ..

خلع معطفه الأبيض عندما صار وحيداً . الساعة جاوزت الظهيرة عندما خرج .. فى الشوارع أخذ يضرب على غير هدى . الشمس واهنة ، الشتاء يسعى إلى القاهرة حثيثاً متردداً .. سحاب متناثر ينذر بمطر ما ! ..

يهتف صديق قاهرى فى مذكراته ، بلوعة :

- امرأة مشبوبة العواطف تُشبع قلبى دفئاً ، كيف أجدها ؟؟ ..

لكن النساء ، كل النساء هذه الأيام ، بلا أجنحة ! ..

تأخر الليل ، أمه نامت ، جيوش النمل ورموزه تتوقف عن الزحف ، وقد انتهت الرحلة ، وفاجأه الملل أخيراً .. يحس رغم ذلك بأنه يزيح عبئاً يثقل كاهله ... ظل يقرأ :

- كتبت أشعاراً ملتهبة لامرأة ذكية الفؤاد ، أين أجدها ؟؟ ..

الوجوه الجميلة مصبوغة ، كلسية كنحت جصى بارد ، المشدات تشمخ بحملها ، بارزاً مصوباً إلى قلب فارس الزمان الهش ..

كتب صديقه :

- أخى متزوج من امرأة جميلة ، كلما طالبها بكلمة حلوة خلال اللحظات الحميمة الخاصة ، قالت بضيق ، بنفاد صبر : ابحث عن هذه الكلمات الزائفة عند أرتيست فى كباريه ! .. أنت لم تعد صغيراً للعواطف ... الآن لا يقربها ! ..

قلّب الصفحات ، صديقه يصرخ مهتاج القلب :

- * ((امرأة فاضلة تفوق اللآلىء .. من يجدها ؟!))

وضع المذكرات جانباً . قلبه يمتلىء على عادته بأسى هادىء . أطفأ النور ، أسند رأسه إلى حاجز السرير ، قال لنفسه : ليتكِ عشت يا سحر

---

* سليمان الحكيم

أعـواماً أخـرى ، لَمَا احتـرقت .. لتخلـى قلبك عن تأججـه ، صرت امـرأة عاقلـة ، بلا ضعف ، بلا تهافت ، ولودعت الأحلام الذهبية الموشاة بالأريج الكاذب ، بهفهفة أجنحة الفراشات الملونة ! ..

تنهد : كيف يعيش الانسان فى السراب ، يموت عطشاً .. ؟؟

قال صديقه الحالم ، وهو يعجب لجهده وعناده :

- سوف تقتل أقراصك الخيال والحب والشعر .. و ..

قال حسام :

- الخيال والشعر عندى صناعتا عجز ! .. يضنينى ألا يحيا الإنسان قوياً بلا ضعف يسحقه ، يستذله ؟؟..

ابتسم بحزن ، همس : لـيتكم - يا أصـدقـاء بوباستس - تقـرأون هذه الأوراق ، مـاذا تحكى ؟! .. لكن أيـن أنتـم الآن ؟! .. لبث جـامـداً فى الفراش ، والليل هادىء ، البرودة بدأت تشيع فى الغرفـة ، يتذكر قول أمه : أن يثقل ملابسه ، يتدثر جيداً بالغطاء ..

حكايات قديمة :

هدوء ناعم يتـمدد باسـترخـاء ، طريق الكورنيش لا صـوت فيـه سوى حفيف الموج ، الكبائن يسودها الظلام ، أغلقت المقاهى واجهاتها الزجاجية فى وجه البرد واحتمـال هبوب العواصف .. بدت الأضواء أيضاً ، مع بداية المساء ، كوشـاح باهت الألوان مفروش على الأرصـفة .. بداية سبتـمبر .. الغرباء فـى المدينة قليلون .. ثمة لسـعة برد تشـوب الهواء الرقـيق ، أصداء الصخب الذى لم يعد قديماً تمامـاً : تنام بين الصخور على طول الشاطىء ..

خرجت سيارة من شارع جانبى ، اندفعت مسرعة ، أغراها خلو الطريق ، كان ضوء المصباحين الأماميين يثقب الظلام الشاحب وهى تمرق كالشهاب لتختفى فى البعد مُخلفة وراءها ضحكة ماجنة رنت فى الهواء ثم ذابت .. بعدها خرجت سيدة من الشارع الجانبى ، سارت تترنح تحت وشاح الأضواء على الرصيف ، كشبح رصاصى يوحى بالبرودة ، باليأس .. أخذ الهواء يُطيّر ملابسها ، ضغطت بطول ذراعيها على الجونلة (على رأسها إيشارب يُلم شعرها القصير ، تتطاير أطرافه أيضاً) ، تابعها أمين بجمود فى جلسته على سور الكورنيش .. عن قرب تقف سيارته فى مكان مُظلم من شارع بوباستس . نظر فى ساعته ، قطّب جبينه . لم تأتِ سحر بعد . هى تعبث به إذن ؟! .. داخ وراءها ، أذلته طوال الصيف . سخر منه الأصدقاء فى شاليه أبى قير ، يقول له أحدهم : أتركها ، غيرها كثيرات ! .. يتمتم بعناد حزين : لا . لم تستعص علىّ امرأة بعد ! .. يضحك آخر ساخراً : تريد اصطيادك ؟! .. يقول بشرود : لِمَ لا ؟! .. أتزوجها ليوم واحد ، ثم ... القلق ينهشه ، يتابع المرأة المجهولة ، تسير مترنحة .. فكر فى أن يتبعها ، يعود بها ، تملأ فراغ الليلة ، ولتذهب سحر إلى الشيطان (فى الغد يتجدد عناده ، لهاثه وراءها) . بقى جامداً متوتراً ، كانت المرأة قد اختفت فى شارع جانبى ، فقد الرغبة فيها فجأة : ((فات موعدك . سوف تأتين غداً بمعاذيرك يا سحر ، لكننى سئمتها ... سأتزوجك إن كنت تريدين ؟ .. هل تريدين ؟؟ .. بسببك أيضاً قتلت صبياً بريئاً ، هربت ، وكنت محظوظاً عندما لم يهتد أحد إلى السيارة ، إلىّ .. بت أياماً طويلة فى قبضة الخوف - عندما علم أبى ظل حزيناً أياماً ثم نسى كل شىء ! .. ماذا تريدين أن

تصنعى بى أيضاً ؟!)) .. موج البحر يتكسر عند الشاطى خلفه على الرمال ، له صوت كهسيس متواصل أبدى .. ترتفع موجة ضالة ، تشده إليها ، تهبط به فجأة ، تغرقه فى القاع ، يموت ... أخذ يتململ على السور ، حيرته تعصف به ، كيف يذهب إلى الشاليه وحيداً ؟ .. يقول وجه شامت : كالعادة ، وحدك ؟ .. لِمَ لا ؟! .. ينظر إليه الآخرون بعيون فضولية ، يوشكون على الانفجار بضحك هستيرى ساخر ، يرتعد .. هبط من فوق السور ، أخذ يتمشى فوق البلاط العارى شارداً ، خُيِّل إليه أيضاً أن ثمة غرباء يتبعونه ، يشيرون نحوه : الذى قتل الصبى ... يتحلقون حوله بفضول ، يحاصرونه .. توقف ، تلّفت حواليه ، طريق الكورنيش شبه خال ، إلا من أشباح بعيدة تذوب فى الظلمة هناك . أراد أن يجرى للإفلات من الحصار ، لكنه لم يتحرك .. الهواء البارد ينشط عن ذى قبل ، يكاد أن يقذف به إلى السور الحجرى الأبيض ، يترنح وهو يسير نحو مدخل شارع بوباستس ، يدلف إلى سيارته ، يجلس أمام عجلة القيادة ، الباب مفتوح ، ضوء السقف ينير الداخل بشحوب . أشعل سيجارة ، أخذ يحملق أمامه من خلال الزجاج . أدار الموتور . أخذ يمتص أنفاس السيجارة بعمق ، بشرود .. (تقفز سحر من خلال بؤرة مضيئة فى الظلام ، شمس صغيرة تبزغ على الشاطىء) : وسط شماسى البلاچ الملونة ، جسدها الرائع يضمه المايوه الوردى ، يدير الرءوس ، تتابعه أيضاً عينا حسام : خجلتان ، تتلصصان .. تحصى عليهما خطاهما .. أمين يعبث فى الرمال ، يتابع سحر وسط السابحين قرب الشاطىء : نزقة ، متوثبة ، عزيزة ، لا ينالها أحد ، يتساءل بحزن ساحق : كيف ينالها ؟! .. يتذكر كلمات

الأصدقاء فى الشاليه ، كلماته هو : أتزوجها ؟ لِمَ لا ؟ .. لليلة لو تريد ؟!
.. أطفأ السيجارة بشرود .. ضجة المصطافين على بلاج كليوباترا
لاتزال تطن برأسه ، تتطفىء شمس الليل ، تغرق فى لجة الهواء البارد ،
فى العاصفة المستيقظة وشيكاً .. خلال العاصفة يسمع صوت الأمواج
صاخباً يضرب الشاطىء ، أضواء المقاهى المغلقة تفرش أرض الطريق ،
مصابيح الشارع أيضاً ، خُيِّل إليه أنه يسمع سحر خلال العاصفة ، تصرخ :
أمين .. أمين .. تستغيث به ، يخرج بالسيارة ، تندفع إلى طريق
الكورنيش ، تتصدى لها العاصفة ، أراد أن يصرخ بدوره : سحر ..
سحر ، أين أنت ؟!.. لم يستطع .. صوتها يظل يدوى : «أمين .. أمين»
.. لا ، ليس وهماً ، قلبه يدق بقوة ، إنها هناك تجرى على طول
الكورنيش ، يرى شبحها أمامه بعيداً ، قال لنفسه : لن تفلت منه هذه
الليلة ، سوف تهرع إلى أحضانه لاهثة ، خائفة ، مرتعدة ، تحتمى به من
العاصفة التى فاجأتها ! .. الليل فى بدايته ، تفاصيل الشبح البعيد الذى
يجرى نحوه تتضح .. سوف ينالها هذه الليلة ، سوف تكون خائفة ،
ستلوذ بصدره كقطة أليفة مقرورة بلا مخالب .. لن تكون لها أعذارها ،
وإلا لماذا تجىء الآن ؟! .. ألتعذبه أيضاً ، على عادتها ، بلا رحمة ؟! ..
الشبح يذوب فى الظلام الشاحب بعيداً ، السيارة تتقدم على الطريق وسط
العاصفة ، أين ذهبت سحر .. هو يعرف تفاصيل الشوارع المتفرعة التى
تصب فى طريق الكورنيش ، سمع مصراع نافذة يضرب الحائط فى بيت
على الطريق ، عندما تلطمه العاصفة .. يطحنه .. صوت العاصفة زئير ،
يكاد أن يبكى ، يضغط دون وعى على بنزين السيارة فتندفع ، تقاومها

العاصفة ، يضغط ، تنحرف به فجأة نحو حائط منزل مجاور ، ترتطم به بشدة ، تتحطم ، يمزق الزجاج المتناثر وجهه وعنقه ، يتدلى رأسه على صدره ! ...

***

جلست سحر تكتب فى غرفتها وحيدة :

- أمين . سامحنى لأنى لا أستطيع أن آتى إليك .. لا ، لم يفتر حبى لك ، رغم كل المخاوف التى يبثونها فى قلبى نحوك . أراك الآن بعين محبة مُشفقة عليك وأنت تنتظرنى على الكورنيش .. لكنى لا أخفى عنك أيضاً أنك أحياناً تخيفنى ، فأنا لا أعرف عن نواياك شيئاً .. أراك دائماً مُقطباً حزيناً ، لماذا ؟ ، ألست تحبنى ؟! .. غموضك يخيفنى حقاً ، وقد قلت لى أن نذهب لأى مكان وحدنا ، ألححت ، قلت لك : أين ؟! .. لم تجب ، لم أدر ماذا كان يدور بخاطرك وقتها ، كنت عصبياً ، لكن عيناك لم تكونا لتريانى ، ونحن جالسان فى «لاكوارتا» .. ما أسرع ما تمضى أيام الصيف ويذهب الغرباء ، وتصفو الاسكندرية ، تعود لأهلها الوادعين .. ألست تحبها مثلى ؟! .. لا ، حتى لا تشرك بحبى فى قلبك ؟؟ .. يا حبيبى؟ .. ماذا دهانى ؟! .. أحس بأنى حزينة ، لست أدرى كيف ستصل رسالتى هذه إليك ، أصبحوا فجأة يضربون حولى حصاراً ، يمنعوننى من الخروج وحدى : أمى وأبى ، حتى عادل .. لعلهم فطنوا أخيراً إلى أنى كنزهم الغالى .. لكن ألا يكفيك أنى .. أنى أحبك ؟! ..

ساعة مبكرة من الصباح . صحت منذ حين . أخذت تكتب . حزن باهت يناوشها فى البداية .. أمها تدق الباب فتخفى الرسالة تحت الوسادة ..

صوت أمها :

- سحر ؟ .. أمازلت نائمة ؟! ..

هتفت سحر بصوت حزين :

- لا يا ماما .

فتحت أمها الباب ، دخلت ..

- صحوت مبكرة على غير عادتك ؟! ..

- لكنى نمت جيداً يا ماما .

- وجهك شاحب !

قالت سحر بقلق : لا ، أبداً .. لكن ماذا ورائك ؟ .. عيناك تبتسمان ، هل .. ؟

سرت عدوى الابتسام إلى سحر ، لكن ابتسامتها غير صافية ، رددت :

- ماما ؟ .. ماذا ورائك ؟! ..

- أتخافين من شىء ؟! ..

هتفت برجاء : لا .. قولى !

- يتقدم ثلاثة خُطّاب مرة واحدة ، يطلبون يدك !! ..

قالت سحر بمرح باهت :

- وأتزوج الثلاثة يا ماما ؟! ..

ضحكت أمها من قلبها ، قالت معابثة :

- أتستطيعين ؟! ..

- طبعاً لا يا ماما . لكن من هم ؟!..

- غرباء ، لا تعرفينهم ! ..

- كلهم ؟! ..

تهالكت سحر فى الفراش حزينة ، تثاءبت .. قالت :

- الآن يهاجمنى النوم ، لا أدرى لماذا ؟! ..

وقفت أمها جامدة حينا ، قالت :

- ماذا بك ؟ .. ألم تفرحى ؟! ..

- لا ..

- كيف .. ؟

- ببساطة شديدة يا ماما ، أنا أحب انساناً آخر ، ولن أرتبط بغيره !! ..

قطبت أمها جبينها ، تساءلت بقلق :

- من ؟ .. أمين ؟! ..

- نعم يا ماما !

هتفت أمها بجزع : مجنونة أنت ؟! .. هذا الولد الفاشل الذى يطارد النساء فى الشوارع .. هل يمكن أن يكون .. رجلاً .. ؟؟

- لِمَ لا ؟

قالت أمها بحدة : انك لن تلبثى أن تنسيه ، عندما تربطين حياتك بمن نختاره نحن ؟! .. انك لازلت صغيرة ولا ..

- لكنى أحبه ! ..

صرخت أمها فى وجهها بتوتر : كلام فارغ !! .. تركت الغرفة غاضبة .. انكفأت سحر تبكى ، تشبع وسادتها دموعاً .. أمسكت بالخطاب المختفى تحت الوسادة عندما هدأت ، أخذت الكلمات ترتعش من خلال الدموع التى ظلت تتعلق بأهدابها ، شردت ...

- أمين . الآن ، وفجأة ، ينهار العالم الدافىء الذى يرسمه لى قلبى دائماً معك ... أعرف أني وحدى بنيت قصوراً من السعادة على الرمال .. فأنا لا أرى ألا تقطيبتك وقلقك وإلحاحك من أجل أن نكون معاً وحدنا ، بعيداً عن الناس .. والآن ، لست أدرى لماذا ، أتذكر تلميحك لى بشاليه فى أبى قير .. ورفضى الذهاب معك ، وإلحاحك حتى الأمس ، فى أن نذهب إلى هناك وحدنا برهاناً منى لك على أنى أحبك !! ... قالت لى أمى منذ قليل أشياء عنك تحرك عقلى ليفسد كل شىء ، وليذهب حطام الأحلام أيضاً فى الريح ! .. لا أود أن أقول لك : تقدم لى ثلاثة خُطّاب معاً ، لا تصدق ، سوف تضحك غيظاً ، ستقول أنها لعبة قديمة لامرأة ، أى امرأة ، لدفع رجل ، أى رجل ، إلى شرك الزواج ! .. لا ، وصدقنى ...

ظلت ذاهلة تحملق فى الفراغ ، تعطلت أفكارها .. فُتح باب الغرفة فتشبثت أصابعها بالورقة ، تكورت فى يدها ، دستها تحت الوسادة .. أبوها يهش لها ، يهتف بها بحنان : سحر ، ماذا بك ؟! .. تقول أمك أنك لا ..

قاطعت أباها بهدوء حزين :

- ستردد ما قالته أمى ؟! ..

- ....

- ذات الكلمات ، أعرف .. لكم ما تريدون ؟ .. أيهم أتزوج ؟! ..

- لا ، ليس الأمر هكذا .. ؟

- بابا ؟ .. أتوافق على أمين لو .. ؟

تساءل أبوها بألم : لو جاء ؟! ..

قالت بدهشة ذاهلة : ولماذا لا يجىء ؟! ..

قال بحسم : هو لن يأتى يا ابنتى !! ..

رددت بجزع : لماذا ؟ .. لماذا لا ..

ساد صمت ثقيل ، قال أبوها ببطء :

- كونى قوية ! ..

- لماذا ؟ ..

- أمين مات فى حادث سيارة ليلة أمس !! ..

الدنيا تدور بها ، تدور .. صرخت :

- أنتم تخدعوننى ، تخدعوننى !! ..

أخذت تبكى بلوعة ، تملأ الغرفة ضجيجاً فاجعاً فى تلك الساعة !

***

ليل طويل يأتى حتماً ، لا يغمض لها فيه جفن . خيالات ماضٍ قريب كانت تسبح مجنحة فى فضاء الغرفة . لبثت أمها معها ردحاً من الليل ، تقول لها أشياء كثيرة عن عواطف البنات الغريرة : الزمن يا ابنتى بلسم لكل جراح القلب والجسد .. هذا ((الولد)) لم أكن أرتاح إليه ، كنا نعلم - أبوك وأنا - أنكما تلتقيان ، لكنّا نشق بك فلم نجرح مشاعرك .. كنا على يقين من أنك سوف ترتدين إلى صواب نعرفه ونريده ! ..

همست سحر بضعف :

- كفى يا أمى . قومى لتنامى . أنا بخير . لست أفكر فى شىء ! ..

قالت أمها وهى تعبث بشعرها بحنان :

- نريد سعادتك يا ابنتى .. وغداً عندما تصبحين أماً ، سوف يكون لك مثل مشاعرى الآن نحوك ! ..

تضمها إلى صدرها ..

عادت الدموع تلمع فى عينى سحر ، قالت أمها :

- لا ، لا تبك ، ونامى يا حبيبتى ! ..

دثرتها بالغطاء ..

عندما أصبحت سحر وحدها ، نهضت ، أسندت رأسها إلى حاجز السرير . أخذت تنظر بجمود إلى سقف الغرفة ، ضوء يتسلل شاحباً من الشارع الذى هدأت حركته . عندما أحست بالبرد ، قامت فأغلقت النافذة ، كانت تترنح فى سيرها إعياء ، ارتمت من جديد على الفراش ، انكفأت .. بدأت ترى الوجه الأبيض ، ببقع النمش الباهتة ، يرنو إليها ، يهمس لها : كم أحبك ! .. روحى الآن ترفرف حولك ، تلازمك دوماً ، حتى لا تنسينى ! .. أريد أن أقول لك (ولا تحزنى ؟!) : لم يقتلنى أحد سواك !! .. كنت لا أطيق البعد عنك ، كنت متوتراً ، قدت السيارة بلا روية ، سمعتك تنادينى فى العاصفة ، هرعت إليك ، كنت أقول لنفسى : كيف تمضى حياتى بدونك . كان خوف غريب يسيطر علىَّ من أن لا نلتقى ليلة أمس ، ولا فى أى ليلة .. ثمة عدو غامض أراه يأخذك منى ، يستلب روحى ، يتركنى جسداً ميتاً يتحرك .. وجدتنى أتنبه متأخراً ، أصطدم ، أحترق ، أموت فى الحطام ، ينساب دمى دافئاً لزجاً فى نهر صغير : إليك ! .. صرخت سحر فى داخلها : لا . لا . أخذت تعض الوسادة ، تكتم الصراخ ، اللوعة تجتاح القلب الصغير الغض والليل يتقدم .. السكون

يجثم على صدر الغرفة كحلم كابوسى طويل .. لا يلبث الجسد المتشنج أن يهدأ ، يلين .. لكن النوم سلطان ظالم مستعص .. أنقلبت على ظهرها .. الأصوات فى الخارج متقطعة باهتة ، تسمعها ولا تسمعها ، هدير البحر بدأ يرتفع فى الصمت الجاثم ، عاصفة صغيرة تبدأ فى الهبوب كليلة الأمس ، ترج زجاج النافذة المغلق ، موجة عالية تجتاح البيت ، تجذبه معها فى انحسارها إلى البحر ، تغرقه .. ارتمت على وجهها من جديد ، تحس بعذاب بالغ .. سكن البيت ، نامت أمها ، أبوها ، وشقيقها الصغير .. الصغير ظل ينظر إليها طوال النهار بصمت حزين ، لا يكلمها .. هتفت بلوعة وهى تضمه إلى صدرها :

- هل رأيت يا عادل ، هل سمعت ، هل .. ؟

تردد الكلمات بغيبوبة ، باستسلام .. عندما أعطوها الصحيفة ظلت تحملق فيها بذهول ، صورة حطام السيارة و .. أخذت تمزق الصحيفة وهى تصرخ : لا . لا . أنتم تخدعوننى !! .. تضمها أمها إليها بحنان ، أبوها يقف جامداً حزيناً ، ساعات النهار تمضى بطيئة ، وأخيراً يجىء الليل ..

نهضت من الفراش ، تسللت إلى صالة المسكن . الدولاب الأبيض الصغير المعلق على الجدار به أقراص منومة ، سوف تتناول قرصاً لتهدأ ، لتنام ،تحمل الأقراص معها إلى غرفتها ، رأسها يعود مرتفعاً فوق الوسادة ، أخذت تتأمل بعينين ثابتتين تفاصيل بياض الجدران المتساقط القديم فى الضوء الشاحب ، حائلة مائلة إلى الزرقة ، ترسم تهاويل غريبة بلا معنى ! .. .. تأخذ قرصاً .. روح أمين تحسها ، لاتزال ترفرف حولها فى الغرفة ،

تطيـر تحت السـقـف ، تهـمس لهـا : تذكـرى الجنة الصـغـيـرة التى كنت سأحملك إليها ، الآن : يصبح كل شىء سراباً يا عشقى المبرح !! .. لكنى أهفوا إليك ، فلماذا لا تأتين .. ؟؟

تهتف سحر بلوعة : سوف نلتقى يوماً يا حبيبى ! ..

تهتف الروح : متى ؟! ..

تردد بإلحاح : متى ؟! ..

تهمس الروح : تعالى ..

تقول سحر : سوف آتى يوماً .. يا حبيبى !

قالت الروح :

- عالمى رحب بلا قيود ولا عذاب .. تعالى ..

- سآتـى ..

- تعالـى ..

- سـآ ...

تبدو على شفتـيها ابتسامة باهتة فى الظلام ، تمتلىء إعيـاء ، تبتلع قرصاً آخر .. الصـداع يبدأ فى دق رأسها بانتظام قـاس ، تقول لنفسهـا بيأس : لو أموت ؟! .. قرص آخر .. قرص .. قر .. ص .. على وجـهها تولد ابتسامة جديدة شـاحبـة كذبالة دافـئـة ، لا تلبث أن تنطفىء ، والوقت يمضى بطيـئاً سـاحقـاً ، تتسـرب برودة غـامضـة إلى الكنز الغالى ، يـقفـز من صـدرها عصفـور فضـى نـزق ، يقف فوق الفراش ، يهتز طربـاً ، ينظـر فيما حوله ، يكتشف المكان ، يطيـر بلا دهشة ، مكان مألوف ، يلمع فى شحوب الضوء ، يرى عصفوراً آخر منكمشاً تحت السقف ، قد أعيـاه الطيـران ، يتعانقـان ،

يـدوران معـاً بفرح ذاهل ، يندفعـان من خلال خصاص النافـذة المغلـق ... فى الخـارج السمـاء صـافيـة ، العـاصفـة تبـددت منذ حين ، النجـوم تلمع بوضوح ، ترتعش . أخـيراً يسكن الكون وديعـاً بأحضان الفـجر الزاحف ، يلتمع الطائران فى ضوء الشمس الوليد الـذى يرتفع بطيئاً ، يذوبان - تحت الأفـق - فوق حافة البحر ..

***

الفصل الثاني



- ١ -

تطلع الصحف ، ذات صباح ، بنبأ الاكتشاف :

- أخيراً ، تتحكم الانسانية فى عواطفها وغرائزها ، من أجل حياة بلا عذاب ! ..

- الانتصار على عبودية الجسد ! ..

- عالِم شاب يتوصل إلى ... التجربة على الانسان : مرحلة أخيرة ! ..

- أى صدى سيكون لهذا الاكتشاف الخطير ؟! ..

- سبع سنوات مضنية بإخلاص وتفان لعالِم فى الثلاثين من عمره ! ..

صورة لشاب نحيل الوجه ، على عينيه نظارة طبية سميكة ، ينظر من خلالها بشرود . الملامح الشاحبة يشوبها حزن دفين غامض ، يتأملها الناس - فى ذلك الصباح - بقلق .. تساؤلات تدور مثل دوامة : ماذا يخبيء الغد ؟! .. بحث الانسان بلا ملل من أجل الانتصار على عبودية غرائزه فى هذه الدنيا !! ..

- يصفق العالم ، اليوم وغداً ، وكل يوم .. لهذه العبقرية الشابة !! ..

- ٢ -

رجل مجهول يصرخ وهو يندفع من أحد المقاهى إلى الميدان ، مهتاجاً .. فى منتصف النهار - ممسكاً بالصحيفة :

- الخلاص .. الخلاص .. لن تستعبدنى هذه المرأة بعد الآن ، ولا أى امرأة !! .

يتحلق البعض حوله فضولاً . عيناه زائغتان ، ذقنه نابتة ، ملابسه مهملة غير نظيفة ، وقف يلهث فى نهر الشارع . السيارات تنزلق من حوله ، كذلك المارة .. يحملق فيما حوله مذهولاً ، يبدو وسط الميدان كتمثال ، يتسرب المتحلقون حوله بملل ، فى كل اتجاه .. الحياة مندفعة ، ككل صباح ، فى الميدان ، الشوارع المحيطة أيضاً ، تحفل بالمارة ، بالضجيج ، بالأصوات ... ما لبث الرجل المهتاج أن هدأ ، عاد إلى المقهى ، جلس منهاراً ، مستنداً إلى الجدار ، تتشبث أصابعه بالصحيفة ، ينظر لنفسه فى المرآة المواجهة ، يهمس : قتلتنى ! .. يتمتم بضعف : عجيب أن يشتهى الانسان امرأة ، لكنها تقتله ! .. رغبتى فيها لا تهمد ، تعذبنى ، وهى .. تعبث بى ، تتلذذ ، صارت بى إلى خراب ! .. .. تنحدر على وجهه النابت الشعر بعض دموع ...

- ٣ -

صباح آخر ..

باعة الصحف فى الشوارع ينتشرون ، ينادون :

- الاكتشاف العجيب ..

- الدكتور حسام يقتل الجنس والعواطف !! ..

- قَتْل من أجل سعادة الانسانية !! ..

علامات الاستفهام غبار لا يهدأ ، يثور فى الشوارع ، فى البيوت . أحلام بخلاص مبهم تحبل به الليالى ، يلده الصباح ، كل صباح : مخلوقات عجيبة ، لا يسحقها ضعفها ، شبقها ، عواطفها ! ..

تقول امرأة لأخرى تقف فى النافذة المواجهة ، عبر زقاق ضيق ، فى حى شعبى :

- سمعت الخبر ؟! .. يقولون : الرجال سوف يستغنون عنا .. ؟؟

تقول الأخرى :

- كذبوا ..

- جاءوا بصورة الدكتور الذى ..

- كذب يا أختى .. كذب ! .. ولو طلعوا القمر ..

تضحك الأخرى بغبطة قلقة ! .. تتنهد بعمق ! ..

***

فى ركن من ناد ليلى ، فى المساء المتأخر ، يتقارع صديقان كئوس الشراب ، يميل أحدهما نحو الآخر ، فى الضوء الشاحب ، يهمس وعلى وجهه ابتسامة منتشية :

- هل تصدق ؟! ..

يقول الآخر وهو فى قمة نشوته أيضاً :

- كلام فارغ ! .. كيف يستغنى الانسان عن غرائزه ؟! .. كيف أتنازل - مثلاً - عن رجولتى .. سوف أكف إذن ، على ذلك، عن شرب الويسكى والسهر فى شقتى الخاصة ، مع زيزى وميمى وبطة وغيرهن ؟! .. أجمل وأمتع ما خلق الله فى الدنيا .. النساء .. ؟

يقـهقـه ... تلتـمع عيناه ، رأسـه يدور دواراً خـفيـفـاً . الموسيـقى على «البيست» قريباً منهما : تنشر نـشازها فى كل اتجاه ، لا يسمعها أحد . ثرثرة بلا نهاية يحـفل بها المكان ، يطفو فوقـها صوت مشروخ لمـغنٍ شاب يتأوه ، يتلوى ، يمضع كلمات أجنبية غامـضة ، يظل يعوى خلال الليلة فى صحراء شاسـعة تسفو فـيها الرمال ، يتـملكها الليل والرياح وعواء الذئاب الجـائعة والخوف ... لكن الصباح يأتى لا محالة ، يتسرب الرواد من ملاهى المدينة ، من مشاربها ، مع الفجر .. يئـوب الموسيقيون بدورهم ، المغنى .. كل إلى : غرفة وحيـدة ، ربما ، تحوى سريراً مهوش الفراش ، ومنضدة صغـيرة عليها بقايا طعام قـديم ، ملابس متسخـة مهملة مكومة فى ركن الحـجرة ، تتدلى أخرى من مـشجب حـائط ، على الجدران صورة أو صـورتان ، معلقـتان : لوجه امرأة عجوز ، حال لونها ، الأخرى : لامـرأة حلوة التقاطيع مبتسمة ، لكنهـا تركته وحـيداً لحـزنه ، لآلتـه يدق عليـها كأنه ينـدب أيامه الباقـيـة ، يزفهـا كل ليلة بمارش جنائزى إلى مثوى أخير يبدو بعيـداً . مسافة طويلة ، قـصيـرة ، لابد أن يقطعـها نحـو النهـاية : خطوة خطوة ، كل يوم . طريقـه يحفل بالشواهد ، على جانبيـه ، والليل يهبط من جديد فيحلق ذقنه ويلبس بذلته الاسموكنج القديمة ، بابيون يتوسط ياقة منشاة تكاد أن تزهق روحه .. يصـحب كـمانه أو عـوده ، أو أوكـورديون قـديم ، يسيـر .. الشـواهد فى الشـوارع أيضاً : تسيـر على قـدمين ، تتصـارع ، تركب الأتوبيس والتـرام والمترو .. تجوع ، تأكل ، تـشتهى ، تلتصق ، تعوى بـلا صوت ، عواؤها فى داخلها .. ينتهى به شـاهده ككل ليلة إلى «البيست» : فيقف يُحـرّك قوسه ، أو يشد جنبى الآلة بين يديه فتـستطيل مصدرة عواء مشروخـاً ، لا يسمعه ،

يضغطها فتنكمش من جديد ، تئن أيضاً .. ينظر بجمود غير مبال إلى الموائد المشغولة المتناثرة أمامه ، والأضواء الشاحبة ، لا يكاد أن يرى الرسوم الباهتة أيضاً : تبرز فى منتصف السقف ، تلقى ظلالاً غامضة لا معنى لها على الجدران .. الزجاجات تنتصب على الموائد ، الأطباق الصغيرة الممتلئة ، الرءوس تتقارب ، تتباعد : لرجل وامرأة ، لرجل ورجل ، لا شىء يهم ! .. مستمر - هو - فى العزف ، والليل يتقدم ، الرءوس تثقل ، المغنى لايزال يتثنى ويئن بلا توقف ، يتشنج بعويل متصل ، ميكروفون صغير مربوط بحبل طويل يمسك به ، يشكو له ، يدور به حول نفسه فوق «البيست» ، يتذكر أماً راحلة (لا يعرف له أباً) ، وحبيبة تبعتها ، لم يَعد له منهما سوى ذكرى وشاهدين فى طابور طويل خارج المدينة ، بصحراء يجثم فوقها الصمت والسكون والخوف ، والنهار ، والليل ، وقُطّاع الطريق ، والهاربون .. لا يذكرهما ، إلا عندما يعود الحزن طازجاً فى المواسم ! ..

النذير الجديد يتسرب فى كل مكان ، ميلاد جديد لانسان يتخلص من بعض عذابه ! ..

الملامح النحيلة السمراء فى الصورة ، تبدو بصدر الصحيفة المسائية ، يتهافت الناس على الصحيفة ، تتعدد طبعاتها ، تنفد رغم ذلك ! ..

بالصفحة الأولى ، يكتب المحرر العلمى بصحيفة «الصباح» حديثاً مع الدكتور حسام :

المحرر : يا دكتور . ماذا كانت دوافعك لهذا البحث ؟! ..

- صمت كامل ، وجه الدكتور يحمر خجلاً -

المحرر : قصة حب فاشل على ما يبدو ، عذّبك طويلاً ، عذاباً مبرحاً ، أليس كذلك ؟! ..

- صمت كامل . وجه الدكتور شاحب -

المحرر : ما هو الباعث إذن ، لوجه الحقيقة ، وبلا خجل ؟! ..

الدكتور : (أخيراً) لا شيء سوى الرغبة فى تحرير الانسان من عبودية الجنس .. أو بمعنى أدق ، للحصول على انسان جديد ، بارد وموضوعى ، ولا تؤثر عواطفه أو رغبته الجنسية على قراره ! ..

المحرر : أفهم إذن ..

الدكتور : دعنى أوضح لك ..

- تفضل . لكن منذ البداية ، من يقف خلف هذا البحث ؟! ..

- كثيرون ، يهمهم أمر انسان هذا العصر ..

- بالتحديد ؟! ..

- علماء ، لهم من الشجاعة ...

- والأقراص ؟ .. سيتم تصنيعها هنا ؟! ..

- نعم .

- بعد أن تُقرها الجهات المعنية ؟! ..

- نعم .

- لكن لابد ، قبل ذلك ، وهذا طبيعى ، من تأكيد أثرها على سلوك الانسان ، نشاطه ، إذ تقول النظرية الفرويدية : أن الجنس هو المحرك الحقيقى لشتى أنواع السلوك الانسانى فى الكون ، وعليه ..

- لا تتعجل ..

- هل تتصور انسان الغد الذى غيّر طبيعته بأقراصك ؟! ..

- نعم .

- على أى صورة ؟! ..

- ....

- إن الحروب ذاتها ، والمصالح التى تحركها كالاستعمار : بمخططاته ، يقول الغلاة الفرويديون ، ولو أنه سلوك له سمته الخاصة ، إلا أنه فى النهاية بدافع جنسى أيضاً !! ..

- ....

- ستقضى الأقراص على الحروب إذن ؟! .. أعنى أن اكتشافك سيؤدى إلى نتائج هامة فى صالح البشرية ؟! ..

- أرجوك ، مهلاً ، ودعنى أقول لك ..

- لكن هل الأقراص يمكن أن تصنع امرأة أيضاً متخلصة من غريزة الجنس ، على حد سواء ، كالرجل ؟! ..

- لِمَ لا ؟! ..

- وبذلك يمكن اعتبار الاكتشاف أيضاً وسيلة ناجحة تماماً ، وبلا آثار جانبية ، لتحديد النسل ، وحل مشكلة الانفجار السكانى ، حلاً نهائياً ، فى العالم ؟! ..

- يا سيدى ..

- سيقال أنه كُفر أيضاً !! .. فما خلقه الله بفكره وتدبيره لا يصح أن يغيره انسان ؟ .. أليس كذلك ؟؟ ..

- ....

المحرر : هناك من يقـول أن الطبيعة ذاتـها ، تلقائياً وببطء شـديد ، تُغيّر نفسها .. وهذا كُفر أيضاً ، فأين الله ؟؟ ..

الدكتور : قد يكون الأمر ..

المحرر : أسمع أصواتاً سترتفع منذ الغد ، تُعارض بقوة هذا الاكتشاف ، لأن انسانـاً مـتخلصاً من عـواطفه ، قاتـلاً لها ، ولرغبـته الجنسيـة على حدٍ سواء ، انسان غير طبيعى ، وقد يتمرد على نفسه يوماً !! ..

الدكتور : مهلاً ..

المحرر : قد يقتل نفسه يأساً من نفسه ! ..

الدكتور : حماسك الفائق لا يدعنى ...

المحـرر : مـعـذرة : الأسئلة ، والأفكار ، والتـصـورات ، تدور برأسى كـدوامة ! .. لكن ألم تكن هـذه التـسـاؤلات تجـول بخـاطرك يوم أن ... أتصور الآن أيضاً : مـاذا سيقول علماء الاجتـماع والأخلاق والدين ، وهم لابد أن يقـولوا كلمتـهم ، لكنهم - يقـيناً - سـيكونون ضد الاكـتشـاف ، وسيذهب جهد السنين سدى ؟! ..

الدكتور : أكون قد أديت ما علىّ .. رغم ذلك !

- لكنك يقـيناً ، سـتـدافع عن جـهـد يرغب الآخـرون بكل قـوتهم أن يهدروه .. أن تدافع عنه حتى الموت !! ..

عزيزى القارىء :

لا شك آن الموضـوع لا ينتهـى عند هذا الحد من الحـوار ، فلنا لقـاء مع الدكتـو فى الغد ، لاستـجلاء الكثير من جـوانب المسألة الجديدة ، باشـتراك علمائنا فى الاجتماع ، الطب ، علم النفس ، علـماء الدين (بصفة خاصة) ، ورجـال القـانون ، السلطـات ، وأنتم .. و .. وكل من يهـمـه الأمـر .. (ثم توقيع المحرر بشكل ملفت للنظر) .

- ٤ -

جريدة الصباح فى ٣/ ٩/ ١٩٦٢ :

من بريد القراء :

* هو محض تهـريج ، أو محـاولة ساذجة للفت الأنظار ، مـا أعلنه هذا الباحث الشـاب ، فما خلقـه الله يتمتع بكل الدقـة والإعجاز بحيث يتـعذر تغييره ! .. ويقود هذا الاكتشاف - إن صح ، وهو أمر بعيد عن التصديق - إلى نوع جديد من البـشر ، تتكون له أخلاقـيات وعلاقات جـديدة تختلف تمامـاً عمـا يربط الجنس البـشـرى بتكوينه الحـالى ، والتكهن بشكل العـالم حينذاك سيكون أمراً صعباً ، ولأمد طويل ، أو ضرباً من التخمين ! ..

وحـرّى بالصُحف الـتى لا تسـعى وراء الإثـارة ، ألا تنشـر مـثل هـذه الأنباء ، إلا فى أبواب الطـرائف ، أو كأحلام بعـيدة للعلمـاء ، لا ينبغى أن ينشغل بها أحد اليوم .. فرفقاً بأعصاب الناس يا محررى الصُحف ..

أ . م . أ موظف - المحلة الكبرى

المحرر الفاضل :

* أمـا بعد ، فـوالله انما ما ورد بصـحيـفـتكم بالأمس ، لشىء يجلّ عن الوصف ، ولا يعدو إلا أن يكون كُفـراً مبيـناً ، وإلا كيف يجتـرىء الانسان

على التكوين الذى صنعه البارى بعظمته وعقله المدبر ، فيرتكب - هذا العبد الضعيف المسكين - هذا الاثم الذى جزاؤه التهلكة .. فيا أيها الباحث ذا الوجه الأسمر ، فوالله إن لفى عينيك - فى الصورة المنشورة - حزناً لا يعادله حزن ، ولعل ضميرك ظل مستيقظاً معذباً لك على الدوام طوال السنين السبع المضيعات التى تقول - فى حديثك مع المحرر - أنك أنفقتها فى هذا الكُفر المبين ، ولعل فى تأنيب ضميرك أمل فى نجاة ، واحتمال غفران من الله قريب ، لفعلتك الشنعاء التى لا توصف .. أسأل الله العظيم أن يغفر لك ويرحمك ، إن كان منك رجاء أيها الأخ (الطبيب) الباحث ، وإلا فأنت من الهالكين ..

الشيخ ع . م . ف - طوخ

الأخ المحرر :

* قرأت ببالغ الدهشة ما ورد على لسان هذا الشاب المنشورة صورته . والواقع أن ما يهدف إليه إن هو فى حقيقته إلا رغبة دفينة فى تخريب وتدمير هذا الكون ، وهو دافع جنونى يولد لدى بعض العقول الضعيفة التى تصوّر لأصحابها أنهم أصحاب رسالات علمية ومكتشفون يبغون - فى الظاهر - رخاء البشرية وتقدمها .. ووالله يا سيدى انه لأمر غير مفهوم أن يعيش الانسان بلا عواطف ولا غريزة جنسية على وجه الخصوص ، فماذا يكون بعد ذلك ، سوى ((كائن)) من نوع غريب على كوكبنا ، يتهدده الانقراض . أما عذاب الغريزة فهو الوقود يا سيدى الذى يحرك عجلة الحياة فى هذا الكون الفريد النظام الذى خلقه الله بعقله المدبر الحكيم ، وأوصانا فيه أن نتعبد له وأن نتقيه فى أقوالنا وأفعالنا . أما ما ورد على لسان هذا الدكتور الباحث - المجنون فى رأيى ، والغير مسئول فى هذه

الحالة قانوناً عن تصرفاته - أن هدفه الحصول على - ما أنقله نصاً من الصحيفة أمامي - ((انسان بارد وموضوعى)) لهو كلام غامض من قبيل السفسطة الفارغة ... فارحموا الناس يا سيدى المحرر من نشر مثل هذه الأنباء التى لا تفيد ، انما هى تذيع البلبة والذعر والغموض بين الناس ، وهى أمور فى غير صالح المجتمع ، فاتق الله يا سيدى المحرر فيما تنشر .. وأقترح - للصالح العام - إيداع هذا الرجل مصح الأمراض العقلية ! ..

س . و . ن - المحامى - القاهرة

رسالة عاجلة إلى المحرر :

* أقف مبهوراً أمام هذا العقل العبقرى الذى يفكر فى تغيير قدر الانسان ، وبالتالى تحويل شكل العالم وعلاقاته الآنية ، إلى شكل جديد : يبدو محاولة تصوره فى الغد القريب - أو البعيد ، على حد سواء ٠ أمر بالغ الإثارة . فلا شك أن عذاب الغريزة يقتل الطموح ويمتص كل طاقات الانسان المبذولة فى إنجاز أمور عالمه والتفكير بشكل منطقى سليم ، إذ تؤثر الرغبة الجنسية على تصورات الناس لأمور حياتهم ، وبالتالى تصرفاتهم تجاه الآخرين : مادياً واجتماعياً .. كذلك فإن العاطفة كالحب - وهو شعور غامض خادع يولد فى الدماغ - فيصور الدميم جميلاً ، أى يزوّر ما يجب أن تراه العين وتشعر به الحواس - بتكوينها - شيئاً نهائياً محدداً لا يقبل الجدل . ومن هنا الخطورة البالغة : أن يحيا الانسان ويكون علاقاته ويشكل مجتمعه على وهم منبعث من العقل (المحرك للعواطف) ، وعلى هذا يصبح إحساسنا بالعالم الذى نحيا فيه بلا شكل مادى محدد وقاطع لدينا ، وهو ما يفسر تناقض سلوك الناس واختلافهم إزاء مشكلة واحدة فى ظروف واحدة

ربما .. وعموماً فإن الخداع نتيجة سيطرة الشبق والعواطف المحركة له ، أو المرتبطة به ، لأمر غير مستحب ، ويقودكثيراً إلى الجريمة ... وما ورد على لسان هذا الباحث العظيم الدكتور حسام من أن هدفه الحصول على انسان جديد (بارد وموضوعى ولا تؤثر عواطفه أو غريزته الجنسية على قراره) لهو شيء مذهل . أُحيي هذا العالِم الشاب الذى لم يجاوز الثلاثين ، وأقدم نفسى متطوعاً لأكون أولَ بشريٍ فى هذا الكون تُجرى التجارب عليه ، فأرجو إبلاغه برغبتى هذه ، وقرارى الذى لا رجعة فيه .

ح . د .ب . مدرس – القاهرة

برقية إلى المحرر :

* حاكموا هذا الرجل المجنون الذى يريد تغيير الكون ، وخراب بيتى .

ى . ن . س . صاحب ملهى ليلى

الهرم

* قولوا لهذا الرجل الذى نشرتم صورته : الدكتور حسام أنه يتسبب الآن فى هدم بيتى . فزوجى أصبح كثير الشكوى ، ويردد دائماً أمامى أن الله سيفرجها وسيتخلص كل رجل من امرأته ، وأنه مادام لا يرغب فيها فسوف يستغنى عنها وعن كل النساء ، وعلى هذا ستخرب البيوت ويعم الطلاق وإلا فعلى المرأة منا أن تكون مجرد جارية وخادمة للرجل ولأولاده بلا أى حقوق أو وزن لمشاعرها ولا شكوى .. ومادام الدكتور يقول أن جنس النساء أيضاً يستطيع كالرجال الخلاص من العواطف والجنس فسوف لا يكون هناك زواج وستخرب الدنيا – قولوا لهذا الدكتور أن يستحى وأن

يخاف الله وأن يسحب أقواله رحمة بنا ، وأن يعلن أن ما جاء بالصحف على لسانه ليس سوى موضوع للتسلية فى ساعة فراغ ...

قبل نشر أخبار بحثه ، كان الهدوء يسود بيتنا ، وكان زوجى مستسلماً ، لا يشكو ، ويوفر لى مطالبى ومطالب أولادى ، وإن شكا فلابد أن يبتلع شكواه ويسكت . وفقكم الله .

ز . ع . س - ربة بيت - المنصورة

جريدة الكواكب فى ٧/ ٩/ ١٩٦٢

من بريد القراء :

* أبلغ السادسة عشرة من عمرى ، طالب .. أحببت إبنة الجيران ، وهى تحبنى .. إلا أن أهلها يمنعونها من لقائى ويهددوننى أيضاً بالقتل .. وأنا الولد الوحيد لأبى وأمى - على ست بنات يكبرننى - ، ويسبب هذا رعباً كثيراً لهم ، ورغم وعدى لهم بأنى لن أكلم هذه البنت ، ولن أعرفها بعد الآن ، إلا أن الخطر كما يقول أبى لا يزال قائماً .. لذلك ، فإنى مستعد لشراء الأقراص التى كتب عنها الدكتور حسام الذى نشرتم صورته ، بأى ثمن لأتناولها وأنسى هذه العواطف نحو ابنة الجيران ، واسمها سحر .. حيث لا يثق أبى فى وعدى ، وأنا أحب أبى وأمى ولا أريد أن أغضبهما ، لكننى أخاف أن لا أستطيع تنفيذ وعدى ، وأن أضعف فى أى لحظة ، خاصة وأنى دائم التفكير فى حبيبتى ، وكثيراً ما لا أنام الليل . فأستحلفك بالله يا سيدى المحرر أن تخطر الدكتور حسام برغبة والدى فى شراء الأقراص ، وفى انتظار الرد ..

ف . ز . ك - السنبلاوين

* أُحيِي هذا العالِم الشاب على اكتشافه المفيد بلا شك ، فأقراصه سوف تعصـم أبناءنا وبناتنا من الانحراف تحت تأثير عواطف الـشباب الغـريرة ، وحتى الوصول إلى مراحل الأمـان والنضج ، ثم العودة - من جديد - إلى الطبيعـة التى خلقـها الـله ، عندما يحين الحـين .. أرجو أن يُعـمّم بيع هذه الأقـراص فى الصيـدليات فى وقت قـريب .. ومـادام الانسان يستطيع أن يسترد طبيعتـه فى أى وقت ، وإلا فلا لزوم لها فى حالة خلاف ذلك ، وقانا الله - وإياكم - كل سوء .

س . ص . ع - أب - منوف

برقيات سريعة إلى المحرر :

- من اتحاد مصففى الشعر
- من اتحاد حائكى ملابس النساء
- من اتحاد معامل أدوات التجميل

* نضم أصـواتنا إلى كل من يريد محـاكمـة هذا الدكـتور . اكـتشـافه جنونى وحاقد . ستتوقف أعمـالنا نهائياً ، فلن تهتم أى امرأة بعد ، أن تبدو جميلة فى عينى رجل . رفعنا شكوانا للمسئولين .

رؤساء الاتحادات / القاهرة

***

الفصل الثالث

- ١ -

تحت ضوء هادىء بارد ، انكب على الرسالة المحتشدة بالكلمات . بحروف مضطربة ، بخط ردىء ، يجىء النبش فى الذكريات القديمة . ست سنوات ، عشر سنوات ، لا يذكر .. بحر الزمن بلا شطآن ، أمواجه متشابهة ، رتيبة ، متتابعة ، تذكى عذابه : بساق شوهاء ، يعرج عليها ، يقفز كالجرادة - بوجه منفّر أيضاً : به ندوب ، تمزق فى الأنف ملتئم ظاهر ، فى العنق .. انقطع النور فتبددت بقع الظل - أيضاً - فوق الوجه الأبيض .. يحتفظ بالصحيفة لديه ، صورة الحطام .. عندما فتح عينيه وسط الضمادات والكدمات ، كان قلبه ، فى داخله ، يرقص فرحاً . فى الخارج : وجه أبيه جامد حزين ، يجلس إلى جوار سريره الأبيض ، تفتر شفتاه - كلما التقت عيونهما - عن ابتسامة حزينة، تتمتم الشفتان أيضاً بحمد الله .. ولده الوحيد .. الأم سقطت مريضة، قالوا لها فى البداية : مات الولد وسط الحطام ، فأخذت تصرخ حتى سقطت مغشياً عليها ، حملوها إلى الفراش ، ظلت به لا تستطيع النهوض ..

الذكرى عذاب.. التذكر عذاب . أيام الصبا ، بداية الشباب ، سنوات لا تنسى ..

- أتذكرها ؟! .. كنت تكرهنى ، كنت تحبها ، نافستك فيها ، ولما كنت جسوراً : أحبتنى ؟! .. تسألنى : هل كنت أحبها ؟! .. لكن البوح عسير ، تظل الحقيقة كامنة أبداً فى العمق ، لا تخرج إلا فى الغيبوبة . فى غيبوبتى ، وحتى عاد تيار الحياة يتدفق بطيئاً فى البداية فى مسراه ، بعد كل ما حدث : لم أبح ، ربما .. لكنى أقول لك ، رغم كل ذلك ، كنت أحبها .. لكنى لم أرها بعد تلك الليلة المشئومة ؟ .. هل تعلم ؟! .. كل النساء هكذا ، وصدقنى ، بلا وفاء ! .. لعلهم قالوا لها : مات ، فتظاهرت - بينها وبين نفسها - بالحزن حيناً ثم نسيت .. أبى أيضاً ، قال لى : أعرف كل شىء . لقد رحلوا عن الاسكندرية . انسها .. صدقت فى البداية ، نسيت .. وأنا قابع أنظر على شارع بوباستس من النافذة ، أرى كل من أعرفهم ، يملؤنى الشوق لأن أكون بينهم كما كنت : نزقاً مغروراً ، ممتلئاً أماناً لكل الأيام القادمة من العمر .. لكنى ترددت ، خفت أن يهرب منى الأخرون ، يشيرون إلى هذا الأعرج ، يصرخون فى وجهه الممزق الملتئم : دراكولا .. مصاص الدماء ! .. يضحكون .. فأنكمش ممتلئاً حزناً ، وأبكى .. لكنى لم أرك فى مرة واحدة من برج مراقبتى .. أرى شقيقها أحياناً وهو يعبر الطريق فى الصباح ، لم أرها هى .. الخيانة طبع النساء !! ..

تنهد حسام ، الرسالة طويلة ، الكلمات غير منتظمة ، بعضها أكثر تشوهاً ، يجد عسراً فى قراءتها ، قال لنفسه : قتلها ، ولم يمت .. يصمها - أخيراً - بالخيانة ككل من عرف من النساء !! ..

- رأيت صورتك فى الصحيفة - قرأت بفضول ما كتب عنك ، عن اكتشافك ، قلت لنفسى : الآن يأتى دوره ليرحمنى بأقراصه من عذابى ! ..

حبى للنساء لم يفتر ، شبقى لن يفتر .. خرجت فى النهاية إلى الشارع من جديد ، لذت بسيارتى ، سيارة جديدة ، لا خوف من السيارات طالما لا تقود نفسها ، الذنب ذنبك ، ما ذنبها ؟! .. هزمتنا العاصفة معاً فى تلك الليلة ، هل تعلم ؟ ، وكنت متوتراً ، مجنوناً .. لا تسألنى لماذا ؟ .. فسأعود بك إلى التفاصيل التى لابد أن تدفن مع صاحبها ، تموت معه .. لا أستطيع هنا أن أقول لك شيئاً ، لا أود أن أكذب أيضاً ، كلنا نكذب ، لكنى الآن : لا أظننى راغب فيه كما رغبت كثيراً ، ككل من كان عالم النساء هوايته !! ..

وجهك النحيل ، فى الصحيفة ، تأملته جيداً . أنكرتك فى البداية . أيكون هو ؟ .. لا ؟ .. نعم ؟ .. أخذت أقرأ الكلمات بلهفة أيضاً ..

حسام ؟ ..

بعد هذه السنوات ، وأنت تقرأ رسالتى ، تذكرنى الآن وتكرهنى ، أعرف .. لكن النبش فى الذكريات القديمة - عند البعض - قد لا يحرك الكراهية .. فلماذا لا تكون .. ؟

ملأ حسام صدره بأنفاسه ، زفرها ببطء .. السطور تنحرف قليلاً إلى جانب الورقة ، إلى أطرافها ، بلا نظام .. تتشبث أصابعه بها ، ترتعش ، يحس بإعياء مبهم ...

- خرجت من عزلتى ، قلت لك . عدت منهوماً إلى كل امرأة . مات أبى منذ عامين - عندما ورثت كل ماله : عاودنى سعارمطلع الشباب إلى المغامرة . أمى لاتزال نائمة على ظهرها فى فراشها ، مشلولة ، مشيرة للرثاء ، تحرك قلبى كثيراً .. بسببى ما تعانى الآن ، لخوفها على الولد

الوحيد ، صانع كل عذاب عرفته وعرفه أبى !.. لكن ، قلت لك أن السيارات لا ذنب لها ، اشترى أبى السيارة الجديدة لأخرج بها من عزلتى، من حزنى .. أتطلع من خلف زجاجها إلى الحياة المضطربة خارجاً : فى الطريق ، على الأرصفة .. من خلف منظار قاتم حقيقى كنت أنظر إلى الناس ، حتى لا أُثير ذُعرهم .. ليست مبالغة .. أحكى لك : ذات صيف ، ركنت سيارتى قرب الكورنيش ، وجلست أنظر إلى كل امرأة باشتهاء ، رآنى صبى صغير مار (وكنت لحظتها بلا قناع) فارتعب : صرخ وجرى مبتعداً .. قدت سيارتى إلى مكان بعيد وأخذت أبكى .. بعدها لم أخلع قناعى ...

قال حسام لنفسه : يكتب .. بعد كل هذه السنوات ؟! .. ماذا يريد حقاً ؟! .. أشعل سيجارة وأخذ يُنفّث دخانها ببطء وشرود .. الوقت يتأخر ، أمه أوت إلى فراشها مبكرة كالعادة ..

***

فى اللحظات الخاصة ، لا يرفع ((أمين)) قناعه عن عينيه .. قالت له امرأة ذات ليلة ، فى الشاليه ، بفضول :

- لماذا لا تخلع عنك هذه .. ؟

قال بضيق :

- وما شأنك ؟! ..

- أتخاف أن يهرب منك الآخرون ؟؟ ..

ضحكت ، قالت :

- تستطيع أن تشتريهم بفلوسك !! ..

قال بتوتر :

- اسكتى ، أو .. ؟

قالت بسخرية :

- أخفتنى !! ..

لاذ بصمت حانق .

ألحت :

- اخلعها ، كملابسك ، بلا خوف !! ..

احمر وجهه ، كانت ملتصقة به ، تركها . سار يعرج حول الفراش ..

قالت المرأة بتهكم :

- خواف !! ..

صرخ فيها : اسكتى .. تأملته المرأة بلا دهشة ، همست :

- هل ألبس ملابسى ؟! ..

- لست أريدك !! ..

قالت بصوت عابث مُنغّم :

- أنت حر ..

عاد يصرخ فى وجهها بعصبية : اسكتى ... بدأت ترتدى ملابسها وهى ترمقه بلا مشاعر . أخذ يزفر بضيق ، يلهث .. سمع طرقاً على الباب ، صديقه صاحب الشاليه يتساءل خارجاً : ماذا جرى ؟! .. لكن صمتاً مفاجئاً يهبط إلى حين ، الآخر ينتظر جواباً لا يجده ، يدق الباب من جديد، يقول أمين بصوت غاضب : انتظر ! .. يحجل ، يفتح الباب ، ينهار جالساً على الفراش المجاور ..

قالت المرأة لصديقه :

- إنه غاضب ! ..

قال صديقه : ماذا حدث ؟! ..

قال هو : لا ، لست غاضباً ! ..

قالت : سألته لماذا لا يخلع نظارته بلا خوف ، كملابسه .. !

ضحكت بخلاعة وهى تتمايل ، تدور حول الفراش ، ترتمى فوقه ، تتمطى بكسل ، تهمس : أريد أن أنام ! ..

قال صديقه :

- أمين . ألا تذهب الآن ؟! ..

هتف أمين بغضب : أتطردنى ؟! ..

قال صديقه بتبرم : لماذا لا تفهمنى ؟! ..

خرج أمين ، قلبه يطفح سخطاً . فى الخارج تربض سيارته ساكنة . تأخر الليل . الظلام سائد على شاطىء أبى قير . أضواء ضعيفة تلوح هناك عن بعد .. سيارة تمر به ، تندفع كشهاب فى طريقها ، تذوب كتلتها السوداء فى البعد ، ليلة صيفية رق هواؤها .. ركب سيارته ، سار بها مندفعاً مهتاجاً ، تنبه لنفسه سريعاً ، كبت غضبه لتكتسى ملامحه بجمود ملتهب ! ..

السيارة تمضى فى طريقها على مهل ..

- ٢ -

الرسالة الثانية إلى حسام :

- أكتب لك من جديد بعد أن لذت بالصمت إزاء رسالتى الأولى . لا تساورنى الشكوك فى أنها ضلت الطريق إليك ، أو وضعتها أنت من ذاكرتك فى ركن معتم . ربما حرك النبش فى الأشياء القديمة مشاعر الكراهية المختزنة لديك .. لكنى ، وصدقنى ، لا أملك مثيلاً لها نحوك ! .. ما يقف بيننا ليس سوى قصة حب تافهة ، عادية ومكررة ، والنساء كثيرات أيها الصديق فلا تحزن ! .. ولقد كنت دائماً انساناً عاقلاً رزيناً .. وإن شئت فلتبحث عنها ، فقد نسى كلٌ منا الآخر !! ..

قال حسام لنفسه بأسى : كأنك لا تدرى ؟! .. كذاب !

نفس الخط المضطرب فوق الغلاف الأبيض ، تبرز الرسالة فى كومة الرسائل الصباحية التى تأتى ... البحث عن الخلاص مطلب للبعض، كومات الصُحف على الجانب الآخر تحفل بكثير من الصراخ المتشنج ضده...

كلمات أمين ، رغم ذلك ، مُلحة :

- أنتظر أقراصك بكل الأمل ، بكل الصبر .. تعذبت كثيراً مع كل امرأة ، كدت أن أقتل فى لحظات الإهتياج .. يُثرننى ، حتى من أدفع ثمناً للحمهن فى الليالى .. أتصورنى - غداً - قوياً ، أعرض عنهن ، أنظر إليهن ، فى كل مكان .. كدمى بلهاء تتحرك فى الشوارع ، فى البيوت ، فى كل مكان ، مخلوقات مثيرة للرثاء ! .. على الدمى بددت الكثير مما ورثت ، أمتلىء بالحزن كلما خلوت إلى نفسى فى لحظة أبرأ فيها من شبقى المجنون ، لكنى لا ألبث أن أعاود المسيرة كعادتى بلا روية ! ..

***

غيوم بيضاء متناثرة فى سباق السلاحف تتحرك تحت سماء زرقاء ، والبرودة تولد بطيئة كل يوم .. شمس سبتمبر ساطعة ، تلمع تحتها أوراق أشجار الحديقة وأزهارها ، ممتدة أمام الدرجات الرخامية للمبنى : بحدائقها الصغيرة التى تقسمها الممرات المرصوفة بالأحجار البيضاء .. حول المبنى تمتد الحديقة .. النسيم يتحرك نشيطاً لطيفاً ، النافذة مفتوحة .. ملأ حسام صدره ، رفع عينيه عن كومة الخطابات المتناثرة أمامه على المكتب فى ذلك الصباح ، عن أكوام الصحف التى نشرت صوره وبحثه .. هم دفين ينمو بصدره كل يوم ، الأصوات المؤيدة واهنة مترددة ، أكثر من وجه لقيه : يبتسم له برثاء ، بتشجيع ، بشماتة أحياناً ! .. يدور فى دوامة بطيئة مضنية ، تعب السنوات السبع يتسرب من بين أصابعه كماء الصنبور إلى الحوض ، إلى البالوعة ، يختزن فى القاع ، يكتسب رائحة عطنة ! .. تجيء كلمات أمين بخطه الرديء المضطرب ، فتملؤه حيرة ، ماذا يصنع له ؟ ! .. أيعطيه ما لديه من أقراص التجارب ؟! .. أمن حقه أن يعطيها له ؟! .. هل .. هل .. هل .. راودته رغبة فى البكاء فجأة ، تماسك ، أخذ يقلب بلا ملل صفحات الصحف أمامه :

– من أجل انسان جديد خامل بلا أجنحة ! ..

– عُقم دائم يصيب الانسانية حتى فى عواطفها ..

ينقرض الجنس البشرى وتندثر حضارته على مر السنين ..

– جريمة تُرتكب ضد الانسان ..

– نحن نحب عذابنا ، شبقنا ..

– كُفر . كُفر . كُفر .

- سذاجة أن يُضيّع عالِم شاب سبع سنوات من العمر ..
جريمة من يقفون خلفه أكبر ..
نقترح تقديمهم جميعاً لمحاكمة عادلة ! ..
- انحراف البحث العلمى ! ..
ابتسامة باهتة حائرة ترتعش على شفتيه ..
يقول أمين :

- أستحلفك بكل ذكريات الصبا ، بشارع بوباستس .. أكاد لا أستطيع أن أصف لك ما أعانيه من عذاب القفز كالجرادة على ساق ونصف يجلب سخرية الآخرين ، إشفاقهم .. أريد أن أعود قانعاً هادئاً - كما كنت - فى النافذة ، بعيداً عن العيون ، محتمياً خلف منظارى الأسود ، مخفياً أيضاً ذلك الوجه الذى كان ... ناسياً شبقى ، ميلى المجنون إلى اقتناص كل امرأة !! ..

أحس حسام بضيق مفاجىء غريب يخنقه ، وضع الصحف والرسائل فى أدراج مكتبه ، خرج كأنه يهرب من الجدران ..

فى الشوارع أخذ يضرب على غير هدى ذاهلاً .. حتى المساء ..

***

الرسالة الثالثة إلى حسام : الاسكندرية فى ...

صديقى : تطفح كلماتى بالعرفان بجميلك ، أُقدّر ترددك تماماً .. أسعدتنى رسالتك القصيرة . أتابع ما يكتب فى الصحف كل يوم ، حتى رغبة الآخرين فى تحطيمك وتقديمك للمحاكمة ، يملؤنى - كذلك - بالحزن ! ..

وضع حسام يده على رأسه ، ظل جامداً حينا ، نهض بطيئاً ، أخذ يدور في غرفة مكتبه ، فتح النافذة ، الصباح نشيط ساطع الضوء ، ضجة المركبات في الخارج - خلف السور - أمواج بحر متلاطم لا يهدأ .. فكر : هل تخمدها أقراصه غداً ؟؟ .. هز رأسه ببطء ، بحيرة ، حزنه الغامض ينداح بصدره ، ينظر إلى الرسالة المفتوحة على مكتبه بملل وهو يجلس من جديد ..

عاد يقرأ :

- أخذت أتأمل الأقراص بفرح بالغ ، أخيراً تحين اللحظة التى أفقد فيها شبقى ، أصير بارد العواطف أيضاً ، إلى حين .. أليس كذلك ؟! .. تناولت قرصين ليلة أمس - كتعليماتك - قبل النوم ، نمت هادئاً متحرراً من مخاوف كثيرة ، أدعو لك الآن من كل قلبى ! ..

خوف غامض يتحرك بصدر حسام ، يحس بدوار ، يرتمى برأسه على سطح المكتب ، يحتضنه بين ذراعيه ، يجهش ببكاء خافت ! ..

- ٣ -

أمين !

التجوال في شوارع المدينة بلا خوف فى المساء : يشغفه ! .. لابد أن يراهن عن قرب .. يكاد أن يضحك ساخراً كلما مر بامرأة ، لا يشتهيها .. هدوء بارد يمتلىء به . ينظرن إليه ، يهمسن : مجنون ، أو يمضين فى صمت وجل ! ..

محطة الرمل تسبح تحت الأضواء ، مركبات الترام تتوافد ، تسكن أخيراً عند محطة النهاية ، تفرغ ركابها فيذوبون سريعاً فى الزحام ، لا تلبث

المركبات أن تعود أدراجها شبه خالية ، فى تلك الساعة . بداية المساء - النساء فى ملابس أنيقة جذابة ، متنافرة ، نصف عارية ، رغم أن الجو صار بارداً : ينتظرن الترام ، يسرن فرادى ، يتسكعن مع الآخرين أمام واجهات الحوانيت المضيئة ، يضحكن ، يتكلمن ، يلذن بالصمت ، ينظر أمين فى وجه كل امرأة يلقاها : بلا مبالاة ، يتبعها حينا ، يقفز فى سيره ، عندما تتنبه إحداهن إلى متابعته : تسرع الخطى بخوف ، أو تلوذ بظل رجل إلى جانبها ، لا تلبث أن تنظر خلفها بقلق ، تراه .. تقول لنفسها برعب أيضاً : مجنون .. وحين يتراجع ويذوب فى الزحام ، تلتقط أنفاسها بعمق ، تسترد روعها الهارب ...

***

الرسالة الرابعة إلى حسام :

- كل الأمور تسير على ما يرام . عاودت التجول بكل مكان بجسارة قديمة ! .. لكن فى الليل ! .. هجرت سيارتى ، الأصدقاء ، و«شاليه» أبى قير .. أجلس طوال النهار إلى النافذة ، متحرراً من عذابى .. لكنى أحس أحياناً بأنى رغم ذلك ، حزين .. وما فرحى بالخلاص إلا وهماً .. تنتابنى لحظات ضعف ، فيخيل إلىّ أيضاً أنى أحب عذابى القديم ، وخوفى من هرب الأخرين منى .. (الكلمات التالية بخط ردىء ، لا يقرأ .. يشعل حسام سيجارة وينفث دخانها ببطء) ثروتى الآن تتسرب ببطء عن ذى قبل ، أجلس أتسلى تحت النافذة بإحصاء مئات الجنيهات ، يصيبنى الملل أخيراً ، فهى مجرد أوراق ملونة تحمل أرقاماً بلهاء تبدو لى دائماً - خلف النافذة - بلا معنى !! .. فى الصباح التالى أعيدها إلى مكانها ، ينظر إلىّ

موظف البنك بدهشة ، لا يقول شيئاً .. أتركه وأمضى بلا مبالاة ، أهرع إلى سيارتى ، أنطلق كأنى أهرب من شيء يطاردنى !! ..

سيدى : نفدت أقراصك عن آخرها . أشعر أحياناً بأنى لست أنا ... أين أنا ؟! ..

الليلة ، عندما أويت إلى سريرى ، كنت متأكداً - لا أدرى كيف - من أنى مجرد رجل ميت : يأكل ويشرب ويتكلم ، لكنه ميت ! .. حزنت بشدة .. قتلتنى أقراصك !! .. (كلمات أخرى بخط ردىء ، فيطفىء سيجارته بقلق) هل خدعتنى ؟! .. بدأت أفكر فى ذلك ! .. (قلب حسام يدق بقوة ، صدره ضيق) نام كل من بالبيت ، حتى أمى ، هدأت أخيراً وغلبها النوم ...

- ٤ -

ذات مساء ، جاء صديق «الشاليه» ، قال لأمين :

- لماذا تبقى طوال النهار بالنافذة ؟! ..

قال أمين بجفاء :

- لا شأن لى بكم ! .. أخرج فى المساء .. وحدى ..

قال صديقه بعتاب :

- تغيرت !

- أدعو لك بالشفاء من «الشاليه» !..

- شىء لا أرجوه ، فللشباب عمر الزهور ، يقولون ، فتمتع به مادمت تملك الكثير !! ..

- مثلك ؟! ..

- ومثلك ، وإلا لحبست نفسى ، أطل من خلف النافذة على انطلاق الآخرين ، كسجين لم يرتكب جرماً ! ..

- لكنى شفيت من شبقى ، من طيشى ! ..

- وبعد ؟! ..

ساد بينهما صمت قصير ، قال أمين :

- هل تذكر حساماً ؟ ..

- من يكون ؟! ..

- من أصدقاء الصبا ، أتعرفه ؟! ..

- لا .

- الآن ، أصبح رجلاً مشهوراً ، تتحدث عنه الصحف كل يوم ، ألا تقرأ الصحف ؟! ..

- لا ..

- اكتشف دواء يجعلك تطلق طيشك وحبك للنساء !! .. مجرد أقراص بيضاء تتناولها ...

هتف صديقه بدهشة خائفة :

- مجنون !

- بل عاقل .. جداً !

ردّد صديقه بإصرار : مجنون . أضاف : هيا بنا . صيدنا ثمين فى الشاليه هذه الليلة . هناء ، أتذكرها ؟! .. (بخبث) تسأل عنك دائماً ، تقول : أين أختفى هذا العاشق المدهش !! ..

يبتسم ..

قال أمين بأسى غامض :

– قل لها : لم أعد أصلح لأحد ! ..

– تحبك !! ..

– أنا لا أعرفها ! ..

– لكنى الليلة لن أذهب بدونك ، أفتقدناك طويلاً ! ..

– دعنى !

قال صديق الشاليه مستدرجاً :

– لنتجول فقط بالسيارة على الكورنيش ، ونعود .. مادمت ..

– ولتذهب أى امرأة إلى الجحيم ؟؟..

– لتذهب ..

– أراهن هذه الأيام ، مجرد مخلوقات بلهاء ملونة ، مثيرة للشفقة ! ..

– ألم تقل لك الأقراص أيضاً أن الحياة امرأة ، أن الحياة حلوة ، وأنك يجب أن تخرج من سجنك ؟! ..

– لكنى شفيت .. تناولتها وشفيت ! .. صدقنى ! ..

قال صديق الشاليه ضاحكاً :

– أصدقك . هيا بنا .

السيارة تنطلق بهما عبر الشوارع.. طريق الكورنيش الطويل يكاد أن يخلو ، إلا من مارة قليلين ، وعابرين متمهلين . البرودة هبطت أكثر ، والشواطىء كادت أن تخلو إلا من فلول مصيفين يعشقون هدوء سبتمبر ...

قال صديق الشاليه :

- هذه الأقراص وهم .. كذبة ! ..

- لا . بل شفاء لك ، وحتى لا تظل حيواناً ، يلهث دوماً خلف امرأة !!..

قال صديقه وهو يضحك :

- شخت فجأة !! ..

قال أمين بحزن : ربما .

الطريق أمامه هادىء ممتد ، يقود السيارة بانتباه . استطال الصمت بينهما ، ما لبث أن قال أمين :

- من هنا نعود ؟! ..

هتف به صديقه برجاء :

- استمر ، أرجوك .. إلى الشاليه ..

- قلت لك ..

- استمر .. لا تفسد الليلة ! ..

- لست أريد ..

- استمر .. لا تكن عنيداً ..

فى الشاليه واجه عيوناً كثيرة ، بعضها غريب ، أخذت تتأمله بفضول . حل صمت مفاجىء عندما دخلا ، ثم ما لبث أن انفجر فى المكان ضحك صاخب ، فوقف أمين جامداً ، حائراً .. كل ما حوله يبدو له كأنه يراه لأول مرة .. على شفتيه ابتسامة متشنجة . عندما هدأت الضجة ، قال صديقه صاحب الشاليه للآخرين بمرح :

- قلت لكم لابد أن آتى به !! ..

امرأة ممتلئة ، شبه عارية ، تجلس وسط شبان أربعة ، يفترشون الأرض ، أخذت تحدق به بفضول ... قال أمين بارتباك : أهلاً .. هزت المرأة رأسها ، قال أحدهم : أهلاً .. بصوته سخرية حادة تلهب الدم فى الوجه الممزق الشائه . ظل أمين واقفاً ، قالت المرأة بسخرية مرحة :

- اجلس يا روحى ! .. أيام تغيرك هكذا ؟! ..

قال أمين :

- أتعرفيننى ؟! ..

- حكوا لى عنك كثيراً ، حتى لكأنى أعرفك يا سيد العشاق !! ..

ازدادت الابتسامة المتشنجة تقلصاً على وجهه وهو يجلس بينهم ، يمد ساقه إلى جانبه بإعياء ، يقول ضاحكاً بشحوب :

- الاستقبال حافل .. لماذا ؟! ..

عاد يضحك ببلاهة فساد صمت مريب ، تبددت الضحكة ..

قال صديقه صاحب الشاليه للآخرين :

- يقول أمين أنه شفى من حب النساء !! ..

هتفت المرأة بلوعة مفتعلة : يا عينى ! .. أخذت تحملق فى وجهه ببلاهة فامتلأ بالضيق ، بدأ صوت تنفسه يرتفع ، تماسك ، حتى لا يطيح بالآخرين فى لحظة اهتياج ...

قال أحدهم :

- كيف تشفى .. ؟

قال صديقه ، صاحب الشاليه ، ضاحكاً :

- بقراءة الصحف ! .. يقول ..

قاطعه أمين بحدة : لا ..

قال آخر : أحك لنا .. ؟

قالت المرأة بلهفة :

- هل تستغنى عنى حقاً ؟! .. حرام ! ..

حاول أمين أن يكون هادئاً ، عاصفة الغضب لم تكد تبدأ بعد ، تهدأ ، يشمله جمود غريب . نظر إلى امرأة الليلة ملياً ، ولم يجب . تشبه - فى عينيه - بهلواناً مصبوغ الوجه ، ثقيل الظل ، عروساً ورقية ترهل لحمها ، تطل من عينيها أصداء عذاب ، وحزن طازج ! .. عادت تحملق فى وجهه بدهشة فأحس بالرثاء لها ، أشعلت سيجارة وأخذت تمتص أنفاسها بشراهة .. قالت : ألديك هذا الدواء ؟! ..

قال : لا .

قالت : سمعت عن الدكتور الذى يقولون أنه ... لكن هل ينفع الدواء امرأة ؟! ..

قال أمين بحيرة : لا أدرى ! ..

عندما تسرب الآخرون واحداً واحداً ، من الغرفة .. صار أمين وحده مع المرأة ، وجهاً لوجه ، حاولت إثارته ، لم يتحرك . لاذت بصدره كقطة أليفة تود لو تنام .. ظل ساكناً ، رفعت عينيها إليه ، شفتيها المصبوغتين ، قالت :

- ألا تقبلنى ؟! ..

ظل جامداً ، كجلمود صخرى بارد ، قالت المرأة بقلق لم يفهمه :

- ألا أعجبك ؟!

قال أمين بصوت ضعيف :

- لم آت من أجل ..

- ولماذا أتيت ؟!

أضافت بقلق :

- يقولون أنك تدفع كثيراً !! ..

صمت ثقيل يهبط كحاجز بينهما إلى حين ..

قال أمين :

- دعينى أخرج ! ..

قالت بأسى باهت :

- أتهرب منى ؟! ..

- لا ..

هتفت بانفعال :

- ألست رجلاً ؟! ..

- دعينى أخرج ! ..

قالت المرأة بتوتر :

- انك لست رجلاً !! ..

صرخ فى وجهها :

- اسكتى ! ..

- ولأنك لست رجلاً ، تدفع كثيراً حتى ..

- اخرسى ! ..

استمرت تقول بلا خوف :

- يكفى وجهك الذى ..

هوى بيده على وجهها ، بوغتت ، وقفت ذاهلة ، تضع يدها على وجهها الملتهب ، انفجر غضب عاصف بصدرها :

- أتضربنى يا امرأة !! ..

انقض عليها ، عاد يضربها ، لم تصرخ ، راغت منه ، حاصرها وهو يلهث ، استمر يضربها ، تقاومه ، تردد بصوت لاهث :

- أتضربنى يا امرأة !! ..

يصرخ فيها بانفعال عاصف :

- اخرسى يا ساقطة !! ..

ينهار خائراً ، يسقط على الفراش المجاور ، قرب الباب ، عندما نهض انكمشت المرأة : مرتعبة أخيراً ، هرع إلى الخارج ، انطلق بسيارته مهتاجاً .. عائداً ..

- ٥ -

الرسالة الخامسة إلى حسام ، مجرد ورقة صغيرة :

- هذا الصباح أشعر باهتياج ، برغبة مجنونة فى تحطيم كل ما حولى .. يخيل إلىّ أنى سأموت الآن ، وهذا هو ملاك الموت ، أو شيطانه ، يطرق باب حجرتى مستأذناً فى اغتيالى قبل الأوان .. أحسن بفرح باهت غامض لأنه لم يفعلها خلال نومى ، أمتلىء الآن (تتلو ذلك كلمات مبهمة لا تقرأ) .

تنتهى الرسالة فجأة !

قـال حسـام لنفسـه بخوف : مـاذا دهاه ؟! .. ظل قـابضاً على الرسـالة بأصابع مـرتعشة ، دسـها فى جيبـه . أخذ يتمـشى فى حجرة نومـه شارداً . اليـوم عطلة . الشمـس ساطعـة ، يسبح فـيـها الفـراش ، دولاب ملابسـه ، وصورة أبيـه القديمة المعلقـة على الحائط .. لكن الشمس لا تـلبث أن تغيب وراء سحـابة صغيـرة ، فيغـرق - مع الحجرة - في إحـساس مُركّز بالكآبة والوحدة ، يتنهـد بعمق شاعـراً ببرد الصباح أيضـاً يتسلل إليه ، يرعـشه .. يدق جرس الباب فينساب بطيئاً إلى الخارج ...

برقـية من الاسكـندرية : ((قادم إليك غـداً . أمين)) . وقف ذاهلاً حـينا ممسكاً بالورقـة الصـفـراء ، أغلق باب المسكن بشـرود ، انسـاب عـائداً إلى الغرفـة ، ضيق ثقـيل الوطأة كـصخرة يجـثم فجـأة على صدره ، يرتـعد .. صوت أمه ، من الغرفة الأخرى ، يرتفع واهناً :

- مَن يا حسام ؟! ..
- برقية من صديق .
- آه ..

يسود صمت كـئيب ، لكن الشمس تبدأ فى الإفلات من سحـابة الشتاء الصغـيرة ، تنزاح الكآبة عن الغـرفة ، تعاود سطـوعها بضـوء مُركّز حاد .. النهار فى الخارج يرتفع ، يرتفع .. والضجة أبداً لا تموت ! ..

- ٦ -

مانشيت عريض بصحف الصباح :

- تقديم الدكتور حسام حسام للمحاكمة ! ..

المطالبة بإلحاح ...

ألقى أمين بالصحيفة جانباً ، منفعلاً متوتراً ، أحمر الوجه .. على الملامح الشيطانية تولد ابتسامة غريبة ، لا تلبث أن تموت على شفتيه . يرتعد ! ..

الصباح معتم . القطار يدرج بطيئاً بعد أن غادر الاسكندرية ،لا يلبث أن يسرع منساباً بنعومة داخل عباءة العتمة . البرد سائد ، بواكير الشتاء . وجهه الآن يبدو جامداً ، يجلس وحده . فى المقعد المقابل رجل يغط بعمق . بصوت مرتفع ، الوقت يمضى كسولاً ، وعباءة الظلمة تنسحب ، والنهار الساطع يوشك أن يطلع ممتلئاً حيوية وصخباً .. القطار يندفع وسط شريط من المزارع على الجانبين ، يهتز .. مداخن عالية تبتعد متراجعة ، لا يكاد أن يتابعها - فى جلسته - من خلال الزجاج المغلق ..

الصحيفة مكومة إلى جانبه ، وقد أسند رأسه إلى الخلف ، بينما صوت العجلات على القضبان رتيب ، يتساقط داخل إناء رأسه المثقوب .. الأصوات ، خارج المقصورة ، لغط وليد ينبعث إلى حين ، يطفو على سطح الهدوء السائد إلا من صوت العجلات الرتيب .. لا يلبث اللغط أن يخفت ويذوب فجأة ! ..

على رف الأمتعة ترقد حقيبته الصغيرة ، (أحضرها بلا داع) تنزوى فى الركن نائمة على جنبها ، تهتز حينا مع اهتزاز العربة ، تسكن ، تهتز ، تسكن ، ينظر إليها ، يراها ولا يراها ، الصوت الرتيب ينسكب برأسه من جديد ، لا تمتلىء ، ينزلق على كتفيه ، على صدره ، على الأرض : هباء .. يتحرك الغبار تحت قدميه .. يقول أمين للفراغ : ((حسام ، أجيىء إليك مسحوقاً بحزنى .. خدعتنى ، قتلتنى .. كن يركعن تحت قدمى .. الآن

أخسر كل شيء .. أعرف حقدك القديم .. كنت تحسدنى لحظوتى لديهن .. تدفن وجهك وأحزانك فى كتبك ، تقول : أمى والكتب هما كل حياتى! .. لابد أن تفرح لأنى أجيء إليك ! .. ستصلح خطأك ، ستعطينى دواء مضاداً .. لن نسخر منى امـرأة بعد ذلك ، سأشتريهن ليسال وليال بفلوسى .. فأنت تعرف أنى أملك الكثير !! ..))

تململ النائم الجـالس أمامـه ، فتح عـينيه ببطء ، تجـاهله أمين ، بدأ النوم يغالبه بدوره ، كان ممتلئاً إعياء أيضاً ، لم ينم طوال الليلة ، قال لنفسه : لابد أن يذهب مبكراً ، ليـعود مع المساء فلا تقلق أمـه ، تقول له : لماذا تذهـب ؟! .. فلا يجيب ، فتقول :

- متى ستعود ؟! ..

- فى المساء ، حتى لا أتركك وحدك ! ..

- ليذهب أحد معك ؟! ..

يقول لها بعتاب :

- أمى ، لم أعد صغيراً ! ..

- قد تحتاج إلى .. القاهرة يا ولدى دوامة !! ..

- أعرف طريقى . لا تقلقى ..

القطار يهـدىء من سـرعـته ، مـحطة ، ربمـا . غلالـة الـفجـر الرمـادية انزاحت ، بدأت الشمس تسـطع ذهبية هينة فـوق المساحات الرحـبة ، لكن سحـابات قاتمة تتـجمع تحت القـبة الزرقـاء . وقف أمين يرقـب الحـقول من خلف النافذة ، الطـرق الضيقـة ، والبيوت القـميئة وهـى تتراجع هاربـة .. تحرك اكتئابه ..

قال لنفسه :

- بعد هذه السنوات أجيء إليه ! .. سأحتضنه ، سأقبله ، ناسياً إلى حين أنه يكرهني! .. لابد أن يحررني من تأثير أقراصه .. في لحظة يأس كنت .. لكني أدخل التاريخ في التجربة .. كأول انسان ...

كاد أن يضحك بسخرية من خواطره :

- لا ، لست أريد دخول التاريخ !.. هذا المساء أعود خارجاً منه إلى ...

جلس في مكانه بإعياء ، كان يبدو مهتاجاً بدرجة ما ، ووجه ((سحر)) يتخايل له فجأة بلا مناسبة من أعماق بعيدة منسية ، يضحك له ، يتوهج على زجاج المقصورة المنعكس فوقها ضوء الشمس الواهن ، يتلاشى ... شعر بالبرد فانكمش قليلاً في ركن المقعد - حزيناً مسحوقاً - وأسند رأسه إلى الوراء وأغمض عينيه ... كان وحيداً تماماً ، زميل المقصورة غادرها إلى حين ، عندما فتح عينيه نظر إلى الصحيفة إلى جانبه بملل ، تذكر المانشيت العريض :

- تقديم الدكتور حسام حسام للمحاكمة ! ..

المطالبة بإلحاح ...

تنهد بارتياح ، بشماتة ، قال لنفسه : سأجده حزيناً ، لكن متى يحاكمونه ؟! .. لكن ، ليس قبل أن آخذ دواءه المضاد . لن ينشغل عني ، أو يهرب مني ، أبرقت له .. سأقتله لو ..

الوجه ثلجي جامد ، لكن عينيه تلتمعان خلف النظارة الكبيرة السوداء ببقايا كراهية قديمة ! ..

يقول لحسام بحدة :

- أتنشغل عنى ؟! .. أتتهرب ؟! ..

- لا ..

- جئت إليك بعد كل هذه السنوات ؟! ..

يقول حسام بوجوم :

- يسعدنى أن أراك ! ..

- أعطنى الدواء !

يتساءل حسام بلا دهشة :

- أى دواء ؟! ..

- لأعود إلى ما كنت .. قبل ..

يهز حسام رأسه بأسى ، يهمس :

- العودة .. مستحيلة !! ..

يصرخ أمين فى وجهه :

- أنت مجنون ! .. الدواء ، أو أقتلك !! ..

يقول حسام بحزن هادىء :

- لست أخاف !! ..

يعود أمين إلى الصراخ وهو يدور فى الحجرة كطائر محبوس :

- أنت جبان ! .. طوال عمرك وأنت تجبن منى ، تحسب لى ألف حساب ، الآن : لا تخافنى ؟! .. سأقتلك ! .. المسدس فى حقيبتى : محشو بالرصاص .. أثق بجبنك دائماً ، أحضرته معى ، حياتك مقابل عودتى إلى .. أنا ميت ! .. خدعتنى ، فى لحظة يأس ! ..

يقول حسام بعد صمت واجم :

- ألححت فأعطيتك الأقراص ! ..

- لم أكن أعرف ..

- قلت لك ..

يصرخ أمين باهتياج : كذاب . كذاب !

باب المقصورة يفتح فيحس بالخجل من أفكاره ، ينكمش أكثر في جلسته ، تسقط الصحيفة على الأرض .. صوت العجلات الدارجة على القضبان تعود رتيبة ، لكنها تضنيه ! ..

- ٧ -

أخذ حسام يدور بغرفة نومه مهتاجاً :

- انظرى ؟ .. انظرى ؟! ..

قالت أمه بقلق :

- اهدأ يا ولدى . لا تصدق دائماً ما تقوله الصحف ! .. أنت تعرف ..

الصحيفة مفتوحة ملقاة على الفراش ، أمسكت بها بشرود ، لا ترى شيئاً ..

قال حسام بقنوط :

- بددتُ بعض عمرى من أجل مخلوق غبى هو جنسنا ! .. أمى ، نحن أغبياء بالميراث ، وهناك .. هناك حيوانات أكثر ذكاء ، قد تفرح يوماً بخلاصها من ضعف موروث ، لكنها لا تملك خلاصها ! ..

عادت أمه تقول برجاء :

- اهدأ يا ولدى ! ..

ملامحها تكتسى بأسى شفيف ، وضعت الصحيفة جانباً ، قالت :

- الحياة معارك ، وهى معركتك .. أن تصمد فيها إلى المنتهى ! ..

- أى منتهى ؟! ..

تنهــدت : لا أدرى . أضــافت : لـكنك لم تصنــع خطـأ ، واللــه إلى جانبـك ! ..

هتف حسام بتوتر :

- ... وأنا أعترض مشيئته ؟؟ ..

- مشيئته ؟! .. لا ، إنك لم ..

على محياها حيرة حزينة .

قال حسام :

- يقول الآخرون أن البحث ذاته : كُفر .. فما خلقه الله ...

- لا ..

- لذلك يريدون محاكمتى لأنى ...

قالت أمه :

- مخطئون بالتأكيد .. مخطئون ! ..

- هو تاريخ قديم موروث يا أمى ، تعرض الكثيـرون خلاله لمحاكمات الجهال والأغبياء وذوى العقول التى استسلمت لواقع لا تفكر له تبديلاً ! ..

قالت أمه :

- خلق الله الناس هكذا .. لحكمة !

أخـذ يدخـن بشـراهة ، يتمـتم بكلمات مـبهـمة وهو يرتـدى مـلابسـه ليخرج ... إلى لا مكان ! ..

***

الشـوارع كانت تموج كـعادتهـا بحركـتـها الدائبـة فى تلك الساعـة من الصبـاح عندما هبط الدرج بـطيئاً شـارداً . حزن قـابـض يحاصـره ، يضيق خطاه ، يبطىء دوزان الدوامة لتعـذبه ! .. سار على الطوار ، ينظر إلى المارة حوله : على الأرصفـة ، فى نهر الشارع ، ينسابون وسط السـيارات عابرين بلا مبـالاة .. يحدث كـثيـراً أن يسقط واحـد منهم تحت العجـلات ، تنداح دماؤه فـوق الأسفلت البـارد قانية حـمراء ، يتحـلق الآخرون حول الجـسد الملقى وسط الطريق ، قاطعين تدفق التيار ، يغطونه بأوراق الصحف ...

الشمس واهنة ، موجات الهواء البارد تتدفق عبر الشارع .. يمضى حسام فى طريقه ، كعادته ، بإصرار .. لا يكاد أن يلتفت .. بينما المارة ، المركبات ، السيارات : بقع تلمع فى عينيه ، فى ذاكرته ، لا تلبث أن تتبدد بلا أثر ! ..

.. يمتلىء أيضـاً ، هذا الصباح ، بخـوف غامض ، قلبـه الصغيـر الطيب ينكمش بين الضلـوع كفـأر التـجارب (الآخـر عـيناه خـرزتان جامـدتان ، يلتصق بركن القفص البارد) ، يتذكر حـسام برقية أمين ، يقول لنفسه : هذا الرجل ، لماذا يأتى الآن ؟! .. يطلب مستـحيلاً !! .. يلوذ بالصمت ، وعند ناصية يقف حيناً ليـعبر الطريق ، رأسه يموج بتفاصـيل أخرى متداخلة ، بلا مناسبة : شـارع بوباستس ، سحر ، عـادل ، صديقه القاهرى المهتاج يكتب شـعره الملتـاع لامرأة تنسـاب فى الطرقـات ، غيـر مبـالية ، أنيـقة مـعطرة ، مصـبوغة الوجه كـدمية ، فى دهاليـز المكاتب ، فى الشارع ، فى المـدارس ، فى المصانـع ، فى غرف النـوم ... وأمه تحبه ، تحنو عليه ، هو كل حـياتها .. وكلهن أمـهـات .. وهذا فـارس الزمـان الهـش يعشـق شكواه ، ينظـر إلى درعه ، إلى سيـفه القديم الذى صدأ : يندس - يأساً - بين أشـيائه المهملة ،

يلهث الفارس خلف أحلام قديمة ، يدفن وجهه في الليالي ، يكتب حكايا العشق والبطولة ، تحرك لديه شبقاً ميتاً ! .. الفارس القديم - تقول الكتب القديمة - لايعرف المستحيل ، تعشقه كل النساء ، شاباً : يسحقهن بازدرائه ، بإعراضه عنهن ، ينشع قلبه - رغم ذلك - أسى وحزناً ، توّاق إلى امرأة ، لكنه يخنق عواطفه ، يكره ضعفه ، يتعذب ، لا يبوح ، لا يُرى صدى عذابه أبداً على ملامحه ، مسدسه في يده ، يطلق النار في كل اتجاه ، صيحاته المنتشية وهو على صهوة جواده القوى الأبيض : تثير الرعب في الكائنات حوله ، تهرب مذعورة . لكن النساء يتطلعن إليه حالمات ، بلا خوف .. يضحك جذلاً ، يهمز حصانه فيندفع نزقاً خلال الغابات ، تتكسر الأشجار الصغيرة ، تنسحق الأزهار البرية تحت سنابكه ! ..

السيارات ، فى نهر الطريق ، تتتابع بلا ملل .. إشارة المرور عند الناصية تضيء بلون أحمر ، فيتوقف السيل المتدفق .. حسام يقف شارداً ، يبدأ في العبور ، الإشارة صارت خضراء فجأة ، اندفعت سيارة متعجلة وهو يعبر ، قذفته بقوة على الرصيف . سقوط قوى مكتوم ، صرخة ضاعت في الضجة ، أعقبها سكون خاص بارد . الضجيج ظل يتدفق ، يرتفع .. الشمس تبدو أكثر سطوعاً .. ظلت السيارة التي صدمته مندفعة في طريقها ، مندسة في الزحام ...

على الأسفلت البارد ذهنه صاف ، ينظر إلى الوجوه الجزعة التى تحلقت حوله سريعاً ، بلا دهشة .. أحدهم يميل عليه ، يهمس للآخرين بلهفة :

- إنه يتنفس ! ..

يخاطبه :

- ألست بخير ؟! .. ماذا جرى ؟! ..

خيط رفيع من الدم ينساب على ذقنه ، على ملابسه .. لايرد .. تبدو مخايل ابتسامة على الوجه الأسمر ، يهتف البعض بحمد الله ، يهمسون بحماس :

- إنه يتنفس .. إنه بخير .. ألست .. ؟

لا تتحرك الشفتان ، تظلا منفرجتين عن ذات الابتسامة الباهتة المعلقة ، أحدهم هرع إلى تليفون قريب ... ضجة الشارع حامية ، وتيار الحياة لا يهدأ ، وفى الرأس المستسلم لبرودة الأسفلت ، وسط العيون الفضولية الجزعة : رؤى جميلة تنثال : وهو يسير - شاباً صغيراً جاداً مهموماً - فى شارع بوباستس .. سحر تضحك له ، تعابثه ، تهمس : أحبك !! .. هل تحبنى ؟! .. أمه أيضاً ، تغمره بحنانها عندما يعود إلى البيت .. يجلس ، يكتب فى ورقة صغيرة عندما يصبح وحده :

سحر :

((يا حلماً لم يبدده مطلع أى نهار ذهبى ، ولا يقظة واعية لكل الأشياء الصغيرة حولى ، دائرة فى أفلاكها لا تمل ، ولا الأرق ، وإن أصبحت الآن .. الآن ..))

الآن ، يصير كل شىء إلى هدوء ، إلى صمت ناعم رحب ، تطير فى فراغه الذى بلا حدود : فراشة زاهية الألوان ، جميلة .. تنطلق مرتفعة فى الأفق الأزرق الصافى ، ينبثق نور ساطع هناك ، يتوهج بشدة ، لا يلبث أن يخبو ببطء وينطفىء ، يصير إلى برد ثلجى واخز ..

يهتف حزيناً :

- يا حلمى المشتعل الذى لم أستدفىء به يوماً ، ولم أفلح به فى إذابة ميراثى البائس المتبلور فى شفتين من ثلج ! .. فأى حياة .. ؟؟

يتلاشى الصوت بطيئاً أسياناً ! ..

(تمت)

((رأفت سليم))

مارس / يونيو

- ١٩٧٦ / القاهرة -

للمؤلف

١ - لا مفر (قصص) - المكتبة الحديثة بالفجالة - ١٩٦٠ .

٢ - الصراخ فى الريح (قصص) - مطابع الناشر العربى - ١٩٧٧ .

٣ - العذاب فى أرض الله (رواية) الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٠ .

٤ - فى لهيب الشمس (قصص) - مركز الحضارة العربية - ١٩٩٨

٥ - الطريق والعاصفة (رواية) - مركز الحضارة العربية - ١٩٩٩ .

قيد النشر

١ - الليل خلف النافذة (قصص) - الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٢ - الحذاء على العشب (قصص) - هيئة قصور الثقافة .

٣ - بكائية للوطن والغربة (قصص) - اتحاد الكُتّاب .

٤ - الحدود (تأملات فى زمن الحلم الضائع) (قصص) - مركز الحضارة العربية .

من قائمة الإصدارات الأدبية

رواية .. قصة

العنوان	المؤلف
ليلة العشق والدم	إبراهيم عبد المجيد
حمدان طليقا	أحمد عمر شاهين
تباريح الوقائع والجنون	إدوار الخراط
رقرقة الأحلام الملحية	إدوار الخراط
مخلوقات الأشواق الطائرة	إدوار الخراط
لا أحد يحبك	أماني فهمي
دنا فتدلى (من دفاتر التدوين ٢)	جمال الغيطاني
مطربة الغروب	جمال الغيطاني
دموع إيزيس	حسني لبيب
أحزان رجل لا يعرف البكاء	خالد غازي
الحب والنار	خالد عمر بن ققه
أيام المرح في الجزائر	خالد عمر بن ققه
يومية هروب	خيري عبد الجواد
مسالك الأحبة	خيري عبد الجواد
العاشق والمعشوق	خيري عبد الجواد
حرب أطاليا	خيري عبد الجواد
حرب بلاد نعم	خيري عبد الجواد
حكايات الديب رماح	خيري عبد الجواد
الطريق والعاصفة	رأفت سليم
في لهيب الشمس	رأفت سليم
اركبوا دراجاتكم	رجب سعد السيد
أبا كنده	كيروجا ترجمة : رزق أحمد
سيرة عزبة الجسر	سعد الدين حسن
شجرة الخلد	سعد القرش
شهقة	سعيد بكر
أيام هند	سيد الوكيل
الممنوع من السفر	شوقي عبد الحميد
الدميرة	د.عبد الرحيم صديق
جسد في ظل	عبد النبي فرج
الفوز للزمالك والنصر للأهلي	عبد اللطيف زيدان
ليس هناك ما يبهج	عبده خال
لا أحـــــد	عبده خال
صعيدى صُح	د. عزة عزت
الشاعر والحرامي	عزت الحريري
في انتظار ما لا يتوقع	عصام الزهيري
إينارو	د. علي فهمي خشيم
تحولات الجحش الذهبي	لوكيوس أبوليوس ترجمة د.علي فهمي خشيم
سراديب	عفاف السيد
الزجاج المكسور	د . غبريال وهبه
ينابيع الحزن والمسرة	فتحي سلامة
يوميات عابر سبيل	فيصل سليم التلاوي
وتر مشدود	قاسم مسعد عليوة
خبرات أنثوية	قاسم مسعد عليوة
حب وظلال	كوثر عبد الدايم
ترانزيت	ليلى الشربيني
مشوار	ليلى الشربيني
الرجل	ليلى الشربيني
رجال عرفتهم	ليلى الشربيني
الحلم	ليلى الشربيني
النغم	ليلى الشربيني
الخرابة 2000	محمد الشرقاوي
كوميديا الإبسحام	محمد بركة
أشياء لا تموت	محمد صفوت
الحاج	محمد عبد السلام العمري
بعد صلاة الجمعة	محمد عبد السلام العمري
الخروج إلى النبع	محمد قطب
رشفات من قهوتي الساخنة	محمد محي الدين
الحبيب الجنون	د. محمود دهموش
فندق بدون نجوم	د. محمود دهموش
الهروب مع الوطن	ممدوح القديري
نسيج الأسماء	منتصر القفاش
ثلاث حقائب للسفر	منى برنس
حافة الفردوس	نبيل عبد الحميد
ديسمبر الدافئ	هدى جاد
خلف النهاية بقليل	وحيد الطويلة
فرد حمام	يوسف فاخوري

شعر ..

أول الرؤيا	إبراهيم زولى
رويدا باتجاه الأرض	إبراهيم زولى
قصائد حب من العراق	اليـاتى وآخرون
بدلاً من الصمت	درويش الأسيوطى
من فصول الزمن الرديء	درويش الأسيوطى
تماماً إلى جوار جثة يونسكو	رشيد الغمرى
كأنها نهاية الأرض	رفعت سلام
الألوان ترتعد بشراهة	شريف الشافعي
صلاة المودع	صبرى السيد
دنيـــا تنادينـا	طارق الزياد
تلف	ظبية خميس
البحر . النجوم . العشب في كف واحدة	ظبية خميس
كتاب الأمكنة والتواريخ	عبد العزيز موافى
حواديت لفندى	عصام خميس
سيرة الماء	د . علاء عبد الهادى
راتب الألفة	علوان مهدى الجيلانى
إضاءة فى خيمة الليل	على فريد
نصف حلم فقط	عماد عبد المحسن
عطر النغم الأخضر	عمر غراب
سراب القمر	فاروق خلف
إشارات ضبط المكان	فاروق خلف
أوراق مسافر	فيصل سليم التلاوى
إذهب قبل أن أبكى	د . لطيفة صالح
الغربة والعشق	مجدى رياض
مشاعر همجية	محسن عامر
غربة الصبح	محمد الفارس
وَنَس	محمد الحسينى
ليالى العنقاء	محمد محسن
العجوز المراوغ يبيع أطراف النهر	نادر ناشد
هذه الروح لى	نادر ناشد

مسرح ..

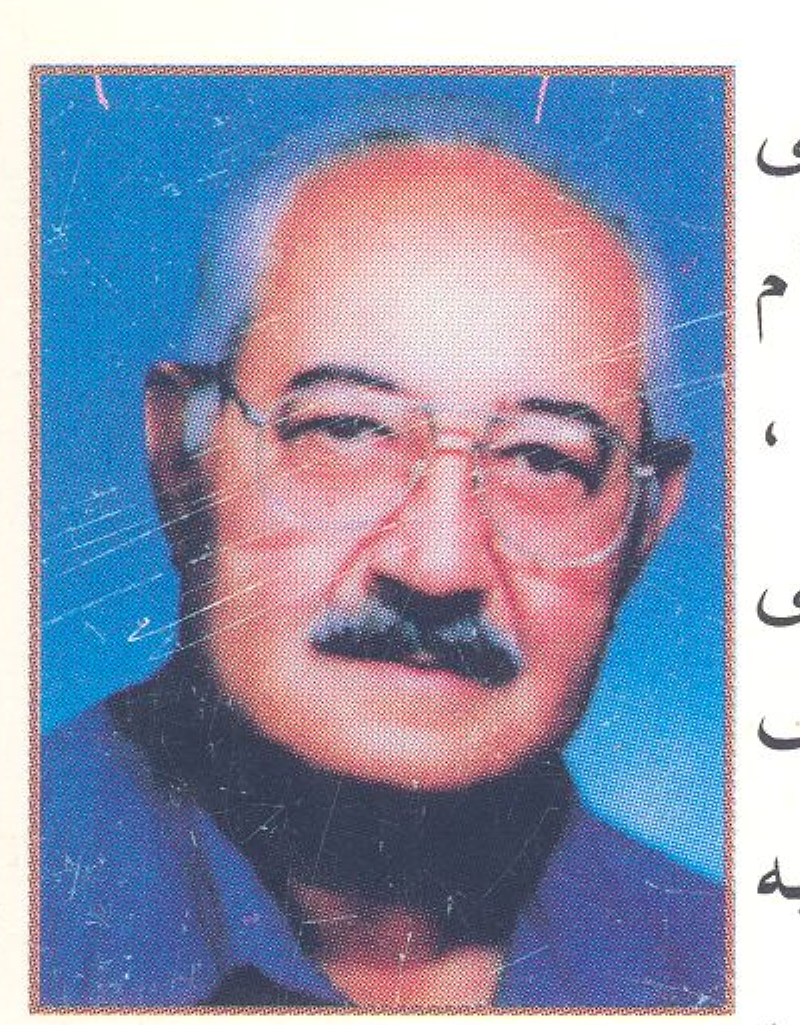
هذه الليلة الطويلة	د.أحمدصدقى الدجانى
اللعبة الأبدية (مسرحية شعرية)	محمد الفارس
ملكة الفرود	محمود عبدالحافظ

دراسات ..

هاجس الكتابة	د . أحمد إبراهيم الفقيه
تحديات عصر جديد	د . أحمد إبراهيم الفقيه
حصاد الذاكرة	د . أحمد إبراهيم الفقيه
الوقوف على الأمية عند عرب الجاهلية	أحمد الأحمدين
قراءة المعانى فى بحرالتحولات	أحمد عزت سليم
ضد هدم التاريخ وموت الكتابة	أحمد عزت سليم
اللغة والشكل	أمجد ريان
المثقفون العرب والتراث	جورج طرابيشى
ثقافة البادية	حاتم عبد الهادى
المثل الشعبي بين ليبيا وفلسطين	خليل إبراهيم حسونة
أدب الشباب في ليبيا	خليل إبراهيم حسونة
العنصرية والإرهاب فى الأدب الصهيونى	خليل إبراهيم حسونة
أباطيل الفرعونية	سليمان الحكيم
مصر الفرعوبية	سليمان الحكيم
البعد الغائب . نظرات فى القصة والرواية	سمير عبد الفتاح
رواد الأدب العربي فى السعودية	شعيب عبد الفتاح
الكتابة المشروع	شوقى عبد الحميد
رحلة الكلمات	د . على فهمى خشيم
بحثاً عن فرعون العربى	د . على فهمى خشيم
أعلام من الأدب العالمى	على عبد الفتاح
هيمنجواى حياته وأعماله الأدبية	د . غبريال وهبة
زمن الرواية : صوت اللحظة الصاخبة	مجدى إبراهيم
فى المرجعية الاجتماعية للفكر والإبداع	محمد الطيب
الجات والتبعية الثقافية	د. مصطفى عبد الغنى
أدب الطفل العربى بين الواقع والمستقبل	ممدوح القديرى
الرواية العربية : رسوم وقراءات	نبيل سليمان

بالإضافة إلى : كتب متنوعة : سياسية - قومية - دينية - معارف عامة - تراث - أطفال .
خدمات إعلامية وثقافية (اشتراكات) : ملخصات الكتب - وثائق - النشرة الدولية - دراسات عربية - معلومات - ملفات صحفية موثقة.

الطريق والعاصفة



الشواهد فى الشوارع أيضاً : تسير على قدمين، تتصارع ، تركب الأتوبيس والترام والمترو .. تجوع، تأكل ، تشتهى ، تلتصق ، تعوى بلا صوت ، عواؤها فى داخلها .. ينتهى به شاهده ككل ليلة إلى «البيست» : فيقف يُحرّك قوسه ، أو يشد جنبى الآلة بين يديه فتستطيل مصدرة عواء مشروخاً، لا يسمعه ، يضغطها فتنكمش من جديد، تئن أيضاً .. ينظر بجمود غير مبال إلى الموائد المشغولة المتناثرة أمامه ، والأضواء الشاحبة ، لا يكاد أن يرى الرسوم الباهتة أيضاً : تبرز فى منتصف السقف ، تلقى ظلالاً غامضة لا معنى لها على الجدران .. الزجاجات تنتصب على الموائد ، الأطباق الصغيرة الممتلئة ، الرءوس تتقارب، تتباعد : لرجل وامرأة ، لرجل ورجل، لا شىء يهم! .. مستمر -هو- فى العزف ، والليل يتقدم ، يتذكر أماً راحلة (لا يعرف له أباً) ، وحبيبة تبعتها ، لم يَعد له منهما سوى ذكرى وشاهدين فى طابور طويل خارج المدينة ، بصحراء يجثم فوقها الصمت والسكون والخوف ، والنهار ، والليل ، وقُطّاع الطريق، والهاربون .. لا يذكرهما ، إلا عندما يعود الحزن طازجاً فى المواسم!..

